المنار

١٣١٥

﴿ فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾

﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾

قال عليه الصلاة والسلام: إن للإسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

﴿ مصر الخميس غرة ربيع الآخر سنة ١٣٢٤ — ٢٤ مايو (ايار) سنة ١٩٠٦ ﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

(مقتبس من الدروس التي كان يلقيها في الأزهر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٢٦١) مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٢) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٣) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

أعاد الأستاذ الإمام التذكير هنا بأن من سنة القرآن الحكيم مزج آيات

الاحكام بآيات المواعظ والعبر والتوحيد ليقرر أمر الحكم وينصر النفوس على القيام به (ثم قال ما معناه بتصرف) قد قلنا مرارا ان أمر الانفاق في سبيل الله أشق الأمور على النفوس لاسيما اذا اتسعت دائرة المنفعة فيما ينفق فيه ، وبعدت نسبة من ينفق عليه عن المنفق ، فان كل انسان يسهل عليه الانفاق على نفسه وأهله وولده الا افراد من أهل الشح المطاع وهذا النوع من الانفاق لا يوصف صاحبه بالسخاء ومن كان له نصيب من السخاء سهل عليه الانفاق بقدر هذا النصيب فمن كان له أدنى نصيب فانه يرتاح الى الانفاق على ذوي القربى والجيران فان زاد أنفق على أهل بلده فأمته فالناس كلهم وذلك منتهى الجود والسخاء · وانما يصعب على المرء الانفاق على منفعة من يبعد عنه لأنه فطر على ان لا يعمل عملا لا يتصور لنفسه فائدة منه وأكثر النفوس جاهلة باتصال منافعها ومصالحها بالبعداء عنها فلا تشعر بأن الانفاق في وجوه البر العامة كإزالة الجهل بنشر العلم ومساعدة العجزة والضعفاء وترقية الصنائع وانشاء المستشفيات والملاجئ وتعميم الدين المهذب للنفوس هو الذي تقوم به المصالح العامة حتى تكون كالمستمدة من ثروة كلهم أعلمهم الله تعالى ان ما ينفقونه في المصالح يضاعف لهم أضعافا كثيرة فهو مفيد لهم في دنياهم وحثهم على أن يجعلوا الانفاق في سبيله وابتغاء مرضاته ليكون مفيدا لهم في آخرتهم أيضا ، فذكر أولا ان الانفاق في سبيل الله بمنزلة اقراضه تعالى ووعد بمضاعفته أضعافا كثيرة ثم ضرب الامثال وذكر قصص الذين بذلوا أموالهم وأرواحهم في سبيله ثم ذكر البعث واحياء الموتى وانتهائهم الى الدار التي يوفون فيها أجورهم في يوم لا تنفع فيه فدية ولا خلة ولا شفاعة وانما تنفعهم أعمالهم التي أهمها الانفاق في سبيله ثم ضرب المثل للمضاعفة · أي بعد ان قرر أمر البعث بالدلائل والامثال إذ كان الايمان به أقوى البواعث على بذل المال

قال (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله) وهي ما يوصل الى مرضاته من المصالح العامة لاسيما ما كان نفعه أعم وأثره أبقى (كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة) أي كمثل أيرك يزرع في أخصب أرض نما أحسن نمو فجاءت غلته مضاعفة سبع مئة ضعف وذلك منتهى الخصب والنماء · أي ان هذا

المنفق يلقى جزاءه في الدنيا مضاعفا أضعافا كثيرة كما قال في آية سابقة فالتمثيل للتكثير لا للحصر ولذلك قال ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ فيزيد على ذلك زيادة لا تقدر ولا تحصر فذلك العدد لا مفهوم له وقيل يضاعف تلك المضاعفة التي ضرب لها المثل ﴿ والله واسع ﴾ لا ينحصر فضله ولا يحدد عطاؤه ﴿ عليم ﴾ بمن يستحق المضاعفة من المخلصين الذين يهديهم اخلاصهم الى وضع النفقات في مواضعها التي يكثر نفعها ويبقى فائدتها زمنا طويلا كالمنفقين في اعلاء شأن الحق وتربية الامم على آداب الدين وفضائله التي تسوقهم الى سعادة المعاش والمعاد حتى اذا ما ظهرت آثار نفقاتهم النافعة في قوة ملتهم وسعة انتشار دينهم وسعادة افراد أمتهم عاد عليهم من بركات ذلك وفوائده ما هو فوق ما انفقوا بدرجات لا يمكن حصرها . وقد قال الاستاذ الامام رحمه الله في الدرس ان المراد بالانفاق هنا الانفاق في خدمة الدين وقال في وقت آخر ان كلمة في سبيل الله تشمل جميع المصالح العامة وهو ما جرينا عليه آنفا .

أقول ومن أراد [illegible] في الأمم العزيزة التي ينفق أفرادها ما ينفقون في اعلاء [illegible] الجمعيات الدينية والخيرية وغير ذلك من الاعمال التي تقوم بها المصالح العامة اذ يرى كل فرد من أفراد أدنى طبقاتها عزيزاً بها محترما باحترامها مكفولا بعنايتها كأن أمته ودولته متمثلتان في شخصه . وليقابل بين هؤلاء الأفراد وبين كبراء الامم التي ضعفت وذلت باهمال الانفاق في المصالح العامة واعلاء شأن الله كيف يراهم أحقر في الوجود من صعاليك غيرهم . ثم ليرجع الى نفسه وليتأمل كيف ان نفقة كل فرد من الافراد في المصالح العامة يصح ان تعتبر هي المسعدة للامة كلها من حيث ان مجموع النفقات التي بها تقوم المصالح تتكون مما يبذله الافراد فلولا الجزئيات لم توجد الكليات ، ومن حيث ان الناس يقتدي بعضهم ببعض بمقتضى الجبلة والفطرة فكل من بذل شيئا في سبيل الله كان اماما وقدوة لمن يبذل بعده وان لم يقصدوا الاقتداء ، لان الناس يتأثر بعضهم بعمل بعض من حيث لا يشعرون . والفضل الاكبر في هذه الامة لمن يبدأ بالانفاق في عمل نافع لم يُسبق اليه . أولئك واضعو سنن الخير والفائزون بأكبر المضاعفة لان لهم أجورهم ومثل أجور من

اقتدى بسنتهم فقد أخرج مسلم في صحيحه وأبو داود والترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من سن في الاسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها » الحديث

ثم قال تعالى ﴿ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى ﴾ الآية فقد قال الاستاذ الامام ان هذه الآية لبيان ثواب الانفاق في الآخرة بعد التنويه بمنفعته في الدنيا . وقد شرط لهذا الثواب ترك المنّ والاذى فأما المنّ فهو ان يذكر المحسن احسانه لمن أحسن اليه ، يظهر به تفضله عليه ، واما الاذى فهو أعم ومنه أن يذكر المحسن احسانه لغير من أحسن عليه بما ربما يكون أشد عليه مما لو ذكره له . وقال غيره المنّ أن يعتد على من أحسن اليه باحسانه ويريه أنه أوجب بذلك عليه حقا والاذى ان يتطاول عليه بسبب انعامه عليه قالوا وانما قدم المنّ لكثرة وقوعه وتوسيط كلمة (لا) للدلالة على شمول النفي بافادة ان كلا من المن والأذى كاف وحده لاحباط العمل وعدم استحقاق الثواب على الانفاق . وقالوا ان العطف بثم لاظهار علو رتبة المعطوف عليه

وقال الاستاذ الامام : قد يشكل على بعض الناس التعبير بثم التي تفيد التراخي مع العلم بأن المنّ أو الأذى العاجل أضرّ ، وأجدر بأن يجعل تركه شرطا لتحصيل الأجر ، وجوابه ان من يقرن النفقة بالمن أو الاذى أو يتبعها أحدهما أو كليهما عاجلا لا يستحق ان يدخل في الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله أو يوصف بالسخاء المحمود عند الله . واذا كان من يمن أو يؤذي بعد الانفاق بزمن بعيد لا يعتد الله بانفاقه ولا يؤجره عليه ولا يقيه الخوف والحزن أفلا يكون المتعجل به أجدر بذلك؟ بلى وانما الكلام في السخي الذي ينفق في سبيل الله مخلصا متحريا المصلحة والمنفعة لا باغيا جزاء ممن ينفق عليه ولا مكافأة ولكنه قد يعرض له بعد ذلك ما يحمله على المن والاذى المحبطين للأجر كأن يرى ممن كان أنفق عليه غمطا لحقه أو إعراضا عنه وتركا لما كان من احترامه اياه فيثير ذلك غضبه حتى يمن أو يؤذي ومثل هذا قد يقع من المخلصين نحذرهم الله تعالى منه

وأنت ترى ان ما قاله الاستاذ الامام هو الظاهر وقد مثل له بالصدقة على

الافراد بما يصنع مثله في الانفاق في المصالح و يشهد لذلك ماقاله ابن جرير في الآية فانه حمل الانفاق فيها على اعانة المجاهدين وصوّر المن والاذى بالانتقاد عليهم ورميهم بالتقصير في جهادهم وكونهم لم يقوموا بالواجب عليهم ثم قال «وانما شرط ذلك في المنفق في سبيل الله وأوجب الاجر لمن كان غير مان ولامؤذٍ من انفق عليه في سبيل الله لان النفقة في سبيل الله مما ابتغي به وجه الله وطلب به ماعنده فاذا كان معنى النفقة في سبيل الله هو ماوصفنا فلا وجه لمنّ المنفق على من انفق عليه لانه لايدله قبله ولاصنيعة يستحق بها عليه — ان لم يكافئه عليها — المن والاذى اذا كانت نفقة ما انفق عليه احتسابا وابتغاء ثواب الله وطلب مرضاته وعلى الله مثوبته دون من انفق عليه » اه وهو يلتقي مع كلام الاستاذ الامام في أن المن في الآية قد يقع متراخيا عن وقت الانفاق ولكن تخصيصه ذلك بالانفاق على المجاهدين مما لا دليل عليه . وقوله تعالى (لهم أجرهم عند ربهم) يشعر بان هذا الاجر عظيم، من رب قادر كريم، فقد أضاف الاجر تشريفا لهم واعلاء لشأنهم { ولاخوف عليهم } يوم يخاف الناس وتعتريهم الأهوال { ولاهم يحزنون } يوم يحزن البخلاء الممسكون عن الانفاق في سبيل الله والمبطلون لصدقاتهم بالمن والاذى بل هم أهل الأمن والطمأنينة ، والسرور الدائم والسكينة، وقد تقدم تفسير الخوف والحزن من قبل

ثم قال تعالى {قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى } قالوا أي كلام جميل تقبله القلوب ولاتنكره يرد به السائل من غير عطاء وستر لما وقع منه من الالحاف في المسألة وغيره مما يثقل على النفوس أوستر حال الفقير بعدم التشهير به خير له من صدقة يتبعها أذى وقيل ان المراد بالمغفرة المغفرة من الله تعالى لمن يرد السائل ردا جميلا وذلك خير له عند الله تعالى من صدقة يتبعها أذى فهو يستحق عليها العقاب من حيث يرجى الثواب . والجملة مستأنفة لتأكيد النهي عن المن والأذى في الآية السابقة

وقال الاستاذ الامام القول المعروف يتوجه تارة الى السائل ان كانت الصدقة عليه وتارة يتوجه الى المصلحة العامة كما اذا هاجم البلد عدوّ وأرادوا جمع المال

الاستعانة على دفعه فمن لم يكن له مال يمكنه أن يساعد بالقول المعروف الذي يحث على العمل وينشط العامل ، ويبعث عزيمة الباذل ، والمغفرة ان تعفي عن نسبة التقصير في الانفاق اليك وأن تظهر في هيأة لاينفر منها المحتاج ولايتألم من فقره أمامك . والمعنى ان مقابلة المحتاج بكلام يسر وهيأة ترضي خير من الصدقة مع الايذاء بسوء القول أو سوء المقابلة ، ولافرق في المحتاج بين أن يكون فردا أوجماعة فان مساعدة الامة ببعض المال مع سوء القول في العمل الذي ساعدها عليه واظهار استهجانه وبيان التقصير فيه أو تشكيك الناس في فائدته لا توازي هذه المساعدة احسان القول في ذلك العمل الذي تطلب له المساعدة والاغضاء عن التقصير الذي ربما يكون من العاملين فيه فكونك مع الامة بقلبك ولسانك خير من شيء من المال ترضخ به مع قول السوء وفعل الاذى . ومعنى هذه الخيرية أنه أنفع وأكثر فائدة لانه يقوم مقام البذل ويغني عنه فمن آذى فقد بغض نفسه الى الناس بظهوره في مقام المتفضل عليه ، ولاتبعث الا البغض والعداء ، خير من العداوة والبغضاء ، وأن أمس في مصلحة الامة وأقوى مرابطة حيث يكون كل واحد من أفرادها في عين الآخر وقلبه في مقام المحسن له وان لم يحسن بالفعل

وأقول ان هذه الآية مقررة لقاعدة : درء المفاسد مقدم على جلب المصالح؛ التي هي من أعظم قواعد الشريعة ، ومبينة ان الخير لا يكون طريقا ووسيلة الى الشر . ومرشدة الى وجوب العناية بجعل العمل الصالح خاليا من الشوائب التي تفسده وتذهب بفائدته كلها أو بعضها والى أنه ينبغي لمن عجز عن احسان عمل من أعمال البر وجعله خالصا نقيا ان يجتهد في احسان عمل آخر يؤدي الى غايته حتى لايحرم من فائدته بالمرة كمن شق عليه ان يتصدق ولايمن ولايؤذي فحث على الصدقة أو جبر قلب الفقير بقول المعروف . ومن البديهي أن أعمال البر والخير لايغني بعضها عن بعض فكيف يغني ترك الشر واتقاء المفاسد عن عمل الخير والقيام بالمصالح

﴿ والله غني ﴾ بذاته وعما له من ملك السموات والارض عن صدقة عباده فلا يأمر الاغنياء بالبذل في سبيله لحاجة به وانما يريد ان يطهرهم ويزكيهم ويؤلف

بين قلوبهم و يصلح شؤونهم الاجتماعية ليكونوا أعزاء بعضهم لبعض أولياء والمن والاذى ينافيان ذلك فهو غني عن قبول صدقة يتبعها أذى لانه لا يقبل الا الطيبات ﴿ حليم ﴾ لا يعجل بعقوبة من يمن و يؤذي . قال الاستاذ الامام: يطلق الحلم و يراد به هذا اللازم من لوازمه أي الامهال وعدم المعاجلة بالمؤاخذة وقد يراد به لازم آخر وهو الاغضاء والعفو وليس بمراد هنا لانه لو أريد لكان تحريضا على الاذى ولكل مقال مقام يعينه فالاول يطلق في مقابل العجول الطائش والثاني في مقابل الغضوب المنتقم وفي الاسمين الكريمين تنفيس لكرب الفقراء وتعزية لهم وتعليق لقلوبهم بحبل الرجاء بالله الغني المغني وتهديد للأغنياء وانذار لهم أن يغتروا بحلم الله وامهاله اياهم وعدم معاجلتهم بالعقاب على كفرهم بنعمته عليهم بالمال فانه يوشك ان يسلبها منهم في يوم من الايام

ثم انه لما كانت النفوس مولعة بذكر ما يصدر عنها من الاحسان للتمدح والفخر وكان ذلك مطية الرياء وطريق المن والاذى ولاسيما اذا آنس المتصدق تقصيرا في شكره على صدقته او احتقارا لها فهذا لا يكاد يملك حينئذ نفسه ويكفها عن المن أو الاذى كما تقدم عن الاستاذ الامام كان من الهدي لهم ومقتضى البلاغة ان يؤتى في النهي عن المن والاذى والرياء بعبارات مختلفة لأجل التأثير في التنفير عن ذلك والحمل على تركه ولذلك قال

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ أقول بين سبحانه وتعالى في الآيتين السابقتين ان ترك المن والأذى شرط لحصول الأجر على الانفاق في سبيله وان العدول عن الصدقة التي يتبعها الاذى الى قول وعمل آخر يكرم به الفقير أو تؤيد به المصلحة العامة خير من نفس تلك الصدقة في الغاية التي شرعت لها . ثم اقبل تعالى على خطاب المؤمنين ونهاهم نهيا صريحا أن يبطلوا صدقاتهم بالمن والاذى وفي ذلك من المبالغة في التنفير عن هاتين الرذيلتين ما يقتضيه ولوع الناس بهما (قال الاستاذ الامام رحمه الله تعالى) واستدلت المعتزلة بالآية على احباط الكبائر للاعمال الصالحة حتى كأنها لم تعمل وأجيب عن الآية بأن المراد بها لا تبطلوا ثواب صدقاتكم و بغير ذلك من التكلف الذي لا يحتاج اليه لان الكلام في احباط المن والاذى لفائدة

المقصودة من الصدقة وهي تخفيف بؤس المحتاجين وكشف أذى الفقر عنهم اذا كانت الصدقة على الافراد وتنشيط القائمين بخدمة الامة ومساعدتهم اذا كانت الصدقة في مصلحة عامة . فاذا اتبعت الصدقة بالمن والاذى كان ذلك هدما لما بنته وابطالا لما عملته وكل عمل لا يؤدي الى الغاية المقصودة منه فقد حبط وبطل كأنه لم يكن فكيف اذا اتبع بضد الغاية ونقيضها كذلك تكون صلاة المرائي باطلة لان الغرض منها لم يحصل وهو توجه القلب الى الله تعالى واستشعار سلطانه والاذعان لعظمته والشكر لاحسانه وقلب المرائي انما يتوجه الى من يرائيه . هذا هو معنى ابطال المن والاذى للصدقة والذي يزعمه المعتزلة هو ان ارتكاب أي كبيرة من الكبائر يبطل جميع الاعمال الصالحة السابقة ويوجب الخلود في النار فاستدلالهم بالآية على هذا انما يدل على أنهم لم يفهموا هدي الله تعالى في كتابه ولم يعرفوا فطرة البشر التي جاء الدين لتأديبها وقد رأيت كلا من أيد مذهبه يهدم مذهبهم . هكذا يتجاذب القرآن أهل المذاهب كل يجذبه الى مذهبه الذي يرضيه لنفسه فتراهم عندما يشاغب بعضهم بعضا يتعلقون بالكلمة المفردة اذا كانت تحتمل ما قالوا ويجعلونها حجة المذهب ويأولون ما عداها ولو بالتمحل وأهل الخلاف ليسوا من أهل القرآن فلا يعول على أقوالهم في بيان معانيه

ثم شبه تعالى أصحاب المن والاذى بالمرائي أو ابطال عملهم للصدقة بابطال ريائه لها فقال ﴿ كالذي ينفق ماله رئاء الناس ﴾ أي لاجل ريائهم أو مرائيا لهم أي لاجل ان يروه فيحمدوه لا ابتغاء مرضاة الله تعالى بتحري ماحث عليه من رحمة عباده الضعفاء والمعوزين وترقية شأن الملة بالقيام بمصالح الامة فهو انما يحاول ارضاء الناس ﴿ ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ فيتقرب اليه تعالى بالانفاق خشية عقابه ورجاء ثوابه في ذلك اليوم ﴿ فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا ﴾ أي ان صفته وحاله في عدم انتفاعه بما ينفق كالحجر الاملس اذا كان عليه شيء من التراب ثم أصابه مطر غزير عظيم القطر أزال عنه ما أصابه حتى عاد أملس ليس عليه شيء من ذلك التراب . ووجه الشبه بين المانّ والمؤذي بصدقته وبين المرائي بنفقته أن كلا منهما غش نفسه فألبسها ثوب زور يوهم رائيه ما لا حقيقة له كمن يلبس لبوس العلماء أو الجند وليس منهم فلا يلبث أن يظهر أمره ويفتضح سره

فيكون ما تلبس به كالتراب على الصفوان يذهب به الوابل . كذلك تكشف الحوادث وما يبتلى به المؤمنون والمنافقون حقيقة هؤلاء وتفضح سرائرهم فهم ﴿ لا يقدرون على شيء مما كسبوا ﴾ أي لا ينتفعون بشيء من صدقاتهم ونفقاتهم ولا يجنون ثمراتها في الدنيا ولا في الآخرة اما في الدنيا فلأن المن والأذى مما ينافي غاية الصدقة كما تقدم ومن فعلهما كان أبغض الى الناس من البخيل الممسك والرياء لا يخفى على الناس فهو كما قال الشاعر

ثوب الرياء يشف عما تحته فاذا اكتسيت به فانك عار

فلا تكاد تجد منانا ولا مرائيا غير مذموم ممقوت . واما في الآخرة فلأن المن والأذى كالرياء في منافاة الاخلاص ولا ثواب في الآخرة الا للمخلصين في أعمالهم الذين يتحرون بها سنن الله تعالى في تزكية نفوسهم واصلاح حال الناس ﴿ والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ أي مضت سنته بأن الايمان هو الذي يهدي قلب صاحبه الى الاخلاص ووضع النفقات في مواضعها والاعراض عن الاتيان بما يذهب بفائدتها بعد وجودها ، فكان الكافر بمقتضى هذه السنة محروما من هذه الهداية التي تجمع لصاحبها بين صلاح القلب والعمل وسعادة الدنيا والآخرة

بعد هذا ضرب الله المثل للمخلصين في الانفاق لاجل المقابلة بينهم وبين أولئك المرائين والمؤذين وعقبه بمثل آخر يتبين به حال الفريقين فقال

(٢٦٥) وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٦) أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ

يقول ذلك الذي تقدم هو مثل أهل الرياء، وأصحاب المنّ والايذاء، ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم﴾ أي لطلب رضوان الله ولتثبيت أنفسهم وتمكينها في منازل الايمان والاحسان حتى تكون مطمئنة في بذلها لا ينازعها فيه زلزال البخل ولا اضطراب الحرص لايثارها حب الخير عن أمر الله على حب المال عن هوى النفس ووسوسة الشيطان . وانما يكون هذا التثبيت بتعويد النفس على البذل حيث يفيد البذل حتى يصير الجود لها طبعا وخلقا وانما قال من أنفسهم ولم يقل لأنفسهم لأن إنفاق المال في سبيل الله يفيد بعض التثبيت والطمأنينة وانما كمال ذلك يبذل الروح والمال جميعا في سبيله كما قال تعالى في سورة الحجرات (٤٩:١٥ انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) وقد هدانا تعليل الانفاق بهاتين العلتين الى أن نقصد بأعمالنا أمرين أولهما ابتغاء رضوانه لذاته تعبدا له وثانيهما تزكية أنفسنا وتطهيرها من الشوائب التي تعوقها عن الكمال كالبخل والمبالغة في حب المال . على أن هذا وسيلة لذاك وفائدة كل من الامرين عائدة علينا والله غني عن العالمين فاذا صدقنا في القصدين صدق علينا هذا المثل وكنا في نفع إنفاقنا ﴿كمثل جنة بربوة﴾ أي بستان بمكان مرتفع من الأرض — قرأ ابن عامر وعاصم بفتح راء ربوة والباقون بضمها — قالوا وما كان كذلك من الجنات كان عمل الشمس والهواء فيه أكمل فيكون أحسن منظرا وأزكى ثمرا اما الاماكن المنخفضة التي لا تصيبها الشمس في الغالب الا قليلا فلا تكون كذلك وقال بعضهم واختاره الامام الرازي ان المراد بالربوة الارض المستوية الجيدة التربة بحيث تربو بنزول المطر عليها وتنمو كما قال (فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت) الآية ويؤيده كون المثل مقابلا لمثل الصفوان الذي لا يؤثر فيه المطر ﴿أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين﴾ أي فكان ثمرها مثلي ما كانت تثمر في العادة أو أربعة أمثاله على القول بأن ضعف الشيء مثله مرتين . والأكل كل ما يؤكل وهو بضمتين وتسكن الكاف تخفيفا وبها قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿فان لم يصبها وابل فطل﴾ أي فالذي يصيبها طل أو فطل يكفيها لجودة تربتها وكرم منبتها وحسن موقعها

والطل المطر الخفيف المستدق القطر. أقول وقد عرف بالاختبار ان الارض الجيدة في المواقع المعتدلة يكفيها القليل من الري لرطوبة ثراها وجودة هوائها فان الشجر يتغذى من الهواء كما يتغذى من الارض والمعنى أن هذه الجنة أكلها دائم وظلها كثر مايصيبها من المطر أو قل فإن لم يكن ثمرها مضاعفا لم يكن معدوما فإذاً لا يكون طالبه قط محروما

ووجه الشبه عندي ان المنفق ابتغاء مرضاة الله والتثبيت من نفسه هو في اخلاصه وسخاء نفسه واخلاص قلبه كالجنة الجيدة التربة الملتفة الشجر العظيمة الخصب في في كثرة بره وحسنه فهو يجود بقدر سعته فان أصابه خير كثير أغدق ووسع في الانفاق وان أصابه خير قليل انفق منه بقدره فخيره دائم و بره لا ينقطع لان الباعث عليه ذاتي لاعرضي كأهل الرياء وأصحاب المن والايذاء · هذا ماسبق الى فهمي عند الكتابة فالوابل والطل على هذا عبارة عن سعة الرزق ومادون السعة. ثم رجعت الى ما كتبت في مذكرتي عن الاستاذ الامام فاذا هو قد قال في الدرس ان النية الصالحة في الانفاق كالوابل للجنة فيجب ان تكون نفقة الانسان لا كأصحاب يتحرون فيضعون نفقتهم موضع الحاجة لا يبذرون بغير روية. ثم قال عنده كالطل: أي ان امثال هؤلاء المخلصين لا يخيب قاصدهم لان رحمة قلوبهم لا يغور معينها فان لم تصبه بوابل من عطائهم يمسه طله فهم كالجنة التي لا يخشى عليها اليبس والزوال · وقد ختم الآية بقوله عز وجل ﴿والله بما تعملون بصير﴾ ليذكرنا بأنه لا يخفى عليه المخلص من المرائي تحذيرا لنا من الرياء الذي يتوهم صاحبه أنه يغش الناس باظهاره خلاف ما يضمر فكأنه يقول ان الله لا يخفى عليه ماتنطوي عليه سريرتك أيها المنفق فعليك ان تخلص له

وأما المثل الثاني فقوله ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الانهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ﴾

(المفردات) ودّ الشيء أحبه مع تمنيه والاعناب جمع عنب وهو ثمر الكرم الطري واحدته عنبة والنخيل جمع نخل أو اسم جمع وهو شجر التمر يذكر ويؤنث وواحدته نخلة والقرآن يذكر الكرم بثمره والنخل بشجره لا بثمره وقالوا في تعليل

ذلك ان كل شيء في النخيل نافع للناس في ارتفاقهم ورقه وجذوعه وأليافه وعثا كيله فنه يتخذون القفف والزنابيل والحبال والعروش والسقوف وغير ذلك . والاعصار ريح عاصفة تستدير في الارض ثم تنعكس عنها الى السماء حاملة للغبار فتكون كهيأة العمود جمعه أعاصر وأعاصير . والمراد بالنار السموم الشديد او البرد الشديد روايتان عن السلف ذكرهما ابن جرير بأسانيده وهو دليل على أن النار تطلق على كل ما يحرق الشيء ولو بتجفيف رطوبته والصر أي البرد الشديد كالحر الشديد في ذلك كلاهما يحرق الشجر والنبات

(التفسير) الاستفهام لانكار وقوع ان يود الانسان لو تكون له جنة معظم شجرها الكرم والنخل اللذان هما أجمل الشجر وأنفعه كثيرة المياه حاوية لانواع من الثمرات الكثيرة قد نيطت بها آماله، ورجا ان ينفق بها عياله، وأصابه الكبر الذي يقعده عن الكسب في حال كثرة ذريته وضعفهم عن أن يقوموا بشأنه وشأنهم حتى لا يبقى له ولا لهم مورد للرزق غير هذه الجنة وبيناهم كذلك اذا بالجنة قد أصابها الاعصار «فأحرقها» بما فيه من سموم النار . وقد اختلف في تفسير «له فيها من كل الثمرات» مع كون الجنة من نخيل وأعناب فقال بعضهم ان المراد بالثمرات هنا المنافع أي هو متمتع بجميع فوائدها وقيل المعنى له فيها رزق من كل الثمرات على حد (وما منا الا له مقام معلوم) أي ما منا أحد الا له الخ وقيل ان من بمعنى بعض وهي مبتدأ وقال الاستاذ الامام ما معناه . اذا التفتنا عن قواعد النحو الوضعية ، ولم نلتزم تعليلاتها وتدقيقاتها الفلسفية ، وكسرنا قيود سيبويه والخليل ، أمكنا ان نفهم العبارة من من غير تقدير ولا تأويل ، فان العربي الصريح ، الذي طبع على القول الفصيح ، لا يفهم من قولك عندي من كل شيء . أو لي في بستاني من كل ثمر الا انك تريد ان لك حظا من كل شيء وسهما من كل ثمر لا يحتاج في ذلك الى تقدير قول محذوف، ونظر غير مألوف ، وهذا هو الصواب ، فطبق عليه ولا تطبقه على قواعد الاعراب ،

أما وجه التمثيل فقد خصوه بالمرائي وقالوا ان المعنى أنه سيكون في يوم القيامة عند شدة الحاجة الى ثواب نفقته التي راءى بها كذلك الشيخ الكبير الذي احترقت جنته التي لا معاش له سواها عند ما كثر عياله الضعفاء وعجز عن العمل فلا يملك

من ثوابها شيئاً ولا يقدر ان يكسب مايغنيه عنه . وأقول ان المثل ينطبق أيضاً على من أبطل صدقته بالمن والاذى وانه ليس خاصا بالآخرة فان باذل المال للفقراء وفي المصالح العامة يكون له من الجاه والمكانة عند الناس مايشبه تلك الجنة التي وصفها المثل في رونقها ومنافعها و يوشك ان يذهب مال هذا المنفق وتشتد حاجته وتقصر يده حتى لا يكون له مرتزق الا ما غرسته يده من جنته تلك فيحاول أن يجني منها فيحول دون ذلك اعصار من المن والأذى أومن ظهور الرياء فيحرقها حتى تكون كالصريم لا تؤتي ثمرتها، ولا تسر رؤيتها، كذلك تكون عاقبة أهل الرياء وذوي المنّ والايذاء، ينبذهم الناس، عند شدة حاجتهم الى الناس، ولذلك أرشدنا تعالى بعد المثل، الى التفكر في عاقبة هذا العمل، فقال (كذلك يبين الله لكم الآيات) أي أنه تعالى يبين لكم الآيات الدالة على حقائق الأمور وغاياتها وفوائدها وغوائلها مثل هذا البيان البارز في أبهى معارض التمثيل (لعلكم تتفكرون) في العواقب فتضعون نفقاتكم في المواضع التي يرضاها مع الاخلاص وقصد تثبيت الانفس حتى لا يستخفها الطيش والاعتباطية فيدفعها الى المن والاذى . ثم قال تعالى

(٢٦٧) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ •

أقول حثت الآيات السابقة على الصدقة والانفاق في سبيل أبلغ حث وآكده وأرشدت الى مايجب ان يتصف به المنفق عند البذل من الاخلاص وقصد تثبيت النفس وما يجب أن يتقيه بعد البذل وهو المن والاذى فكان ذلك إرشادا يتعلق بالبذل والباذل ثم أراد تعالى ان يبين لنا ماينبغي مراعاته في المبذول ليكمل الارشاد في هذا المقام فقال (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الارض) فبين نوع مايبذل وينفق ووصفه . أما الوصف فهو ان يكون من الطيبات والطيب هو الجيد المستطاب وضده الخبيث المستكره ولذلك قال في مقابل

هذا الامر ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾ أصل تيمموا تتيمموا . ومن العجيب ان يختلف المفسرون في تفسير الطيب هل يراد به ماذكر أم هو بمعنى الحلال وأن يرجح بعض المعروفين بالتدقيق منهم الثاني وبعضهم أنه ورد هنا بالمعنيين على أن بعضهم عزا الاول الى الجمهور . ثم ان كل جيد وحسن يوصف بالطيب وإن كان حسنه معنويا فيقال البلد الطيب والكلم الطيب ولكن أسلوب الآية يأبى ان يراد بالطيبات هنا أنواع الحلال وبالخبيث المحرم وقواعد الشرع لا ترضاه وما ورد في سبب نزول الآية يؤيد أسلوبها وهو ان بعض المسلمين كانوا يأتون بصدقتهم من حشف التمر وهو رديئه رواه ابن جرير عن البراء بن عازب وفي رواية عن الحسن كانوا يتصدقون من رذالة مالهم وفي أخرى عن علي كرم الله وجهه نزلت هذه الآية في الزكاة المفروضة كان الرجل يعمد الى التمر فيصرمه فيعزل الجيد ناحية فاذا جاء صاحب الصدقة اعطاه من الردى . وقد أورد ابن جرير في ذلك عدة روايات . والمعنى أنفقوا من جياد أموالكم ولا تيمموا أي تقصدوا الخبيث [illegible] ناحية دون الجيد [illegible] نهي عن تعمد حصر الصدقة في الخبيث ولا يدل على منع التصدق بعضه من غير تعمد ولا حصر ولو أريد بالخبيث الحرام لنهى عن الانفاق منه البتة لا عن قصد التخصيص فقط . أما وقد جاءت الآية بالامر بالانفاق من الطيبات من غير حصر النفقة فيها وبالنهي عن تحري الانفاق من الخبيث خاصة دون الطيب لا عن مطلق الانفاق من الخبيث فلا يجوز مع هذا ان يراد بالطيبات الحلال وبالخبيث المحرم . على ان الاصل في مال المؤمنين أن يكون حلالا وانما خوطبوا بالانفاق مما في أيديهم فلو أريد بالطيبات والخبيث ماذكر لكان الخطاب مبنيا على أن أموال المؤمنين فيها الحلال والحرام وكان منطوق الآية أنفقوا من الحلال ولا تتحروا جعل صدقاتكم من الحرام وحده ومفهومها جواز التصدق بالحرام أيضا وهذا مما يأباه النظم الكريم ، والشرع القويم ، ثم ان ماذكرناه مؤيد بقوله تعالى (٣ : ٩٢ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وبوصف الرزق بالحلال والطيب معا في آيات كثيرة ومثل قوله تعالى (٥ : ٥ اليوم أحل لكم الطيبات) وقوله (٧ : ١٥٧ ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) والآيات في هذا المعنى كثيرة فهل تقول ان المعنى يحل لهم الحلال ويحرم عليهم الحرام وهو من

تحصيل الحاصل؟ واعلم ان الخبيث الذي حرم أخص من الخبيث الذي ينهي عن تحري النفقة فيه فان المحرم ما كانت رداءته ضارة كالدم ولحم الخنزير

وأما قوله تعالى ﴿ ولستم بآخذيه ألا ان تغمضوا فيه ﴾ فهو حجة على من ينفق الخبيث في سبيل الله تشعر بالتوبيخ والتقريع أي كيف تقصدون الخبيث منه تتصدقون ولستم ترضون مثله لأنفسكم الا أن تتساهلوا فيه تساهل من أغمض عينيه عنه فلم ير العيب فيه وان يرضى ذلك لنفسه أحد الا وهو يرى أنه مغبون مغموص الحق · وقد صوروه فيمن له حق عند امرىء فرد عليه بدلا عنه مما هو دونه جودة وهو يكون في غير الحقوق أيضا فالردىء لا يقبل هدية الا باغماض فيه وتساهل مع المهدي لأن اهداء الردىء يشعر بقلة احترام المهدى اليه · وما يبذل في سبيل الله وابتغاء مرضاته هو كالمعطى له فيجب على المؤمن ان يجعله من أجود ما عنده وأحسنه ليكون جديرا بالقبول فان الذي يقبل الردىء مغمضا فيه انما يقبله لحاجته الى قبوله [illegible] تعالى لا [illegible] ولذلك قال ﴿ واعلموا أن الله غني حميد ﴾ فلا يصح أن يتقرب اليه بما لا يقبله [illegible] اليد وفقير النفس الذي لا يبالي ان يرضى بما ينافي الحمد كقبول الردىء الذي يدل على عدم التعظيم والاحترام

وأما نوع ما ينفق فهو بعض ما يجنيه المرء بعمله ككسب الفعلة والتجار والصناع وبعض ما يخرج من الارض من غلات الحبوب وثمرات الشجر والمعادن والركاز وهو ما كان دفن في الارض قبل الاسلام · وقد أسند اليه تعالى ما يخرج من الارض مع أن للانسان فيه كسبا لأن العمدة فيه فضل الله تعالى لا مجرد حرث الانسان وبزره على أن منه ما ليس للناس فيه عمل ما أو ما لهم فيه الاعمل قليل لا يكاد يذكر · قال بعضهم ان تقديم الكسب على ما يخرج الله من الارض يدل على تفضيله ويعضده حديث البخاري مرفوعا « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده » واختلفوا في الانفاق هنا فقيل هو خاص بالزكاة المفروضة وقيل خاص بالتطوع وقيل يعمهما وهو الصواب اذلا دليل على التخصيص ·

واختلف الذين قالوا ان الآية في الزكاة المفروضة هل تجب الزكاة في كل ما يخرجه الله للناس من الارض عملا بعموم اللفظ أم يخص ببعض ذلك واختلف القائلون

بالتخصيص فقال بعضهم انه خاص بما يقتات به دون نحو الفاكهة والبقول وقال بعضهم غير ذلك . والآية في نفسها جلية واضحة لامثار للخلاف فيها وانما جاء الخلاف من حملها على زكاة الفريضة مع اضافة ماورد من الروايات القولية في زكاة ماتخرج الارض اليها. ومن جردها عن الآراء والروايات فهم منها ان الله تعالى يأمرنا بأن ننفق من كل ماينعم به علينا من الرزق سواء كان سببه كسب أيدينا أو مايخرجه لنا من نبات الارض ومعادنها كل ذلك فضل منه يجب شكره له بنفقة بعض الجيد منه في سبيله وابتغاء مرضاته. والآية لم تخصص ولم تعين مقدار ماينفق بل وكلته الى رغبة المؤمن في شكر الله تعالى فإن ورد دليل آخر يعين بعض النفقات فله حكمه

أقول لم يبق بعد هذا الترغيب والترهيب والتعليم الكامل والتأديب ، الا ان يكون المؤمن بهذا الهدي أشد الناس رغبة في الصدقة والانفاق في سبيل الله بحسب سعته وحاله، وأن يكون في نفسه [illegible] الفائدة متمتعا بعد البذل عما يذهب بثمرته من المن والأذى ولكننا نجد كثيرا من اللابسين لباس الايمان يتقلبون في النعم وهم أشد الناس لها كفرانا، اذ كانوا أشد الناس امساكا وبخلا ، وقد يعد هذا من مواطن العجب ، ولكن الكتاب الحكيم قد جاءنا بما له من العلة والسبب ، وأرشدنا الى طريق التفصي منه والهرب ، فقال :

(٢٦٨) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٩) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ »

فقوله تعالى (الشيطان يعدكم الفقر) معناه أنه يخيل اليكم بوسوسته أن الانفاق يذهب بالمال ، ويفضي الى سوء الحال، فلا بد من امساكه والحرص عليه استعدادا لما يولده الزمن من الحاجات وهذا هو معنى قوله تعالى (ويأمركم بالفحشاء) فان الأمر هنا عبارة عما تولده الوسوسة من الاغراء ، والفحشاء البخل وهي في الاصل كل ما فحش أي اشتد قبحه وكان البخل عند العرب من أفحش الفحش قال طرفة

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي　　عقيلة مال الفاحش المتشدد (١)

﴿ والله يعدكم ﴾ بما أنزله من الوحي و بما أودعه في النفوس الزكية من الالهام الصحيح ، والعقل الرجيح ، وفي الفطر السليمة من حب الخير ، والرغبة في البر ، ﴿ مغفرة منه وفضلا ﴾ فانه جعل الانفاق كفارة لكثير من الخطايا وسببا يفضل به المرء قومه ويسودهم أو يسود فيهم بما يجذب اليه من قلوب من يكون سببا في رزقهم وهذا الفضل من الجاه بالحق هكذا قال الاستاذ الامام والمأثور عن ابن عباس رضي الله عنهما ان الفضل هو ما يخلفه الله تعالى على المنفق من الرزق . ويؤيده قوله تعالى (٣٤ : ٣٩ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) وفي حديث الصحيحين « ما من يوم يصبح فيه العباد الا ملكان ينزلان يقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا و يقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا » أي تلفا لماله بأن يذهب حيث لا يفيده ومعنى هذا الدعاء عندي أن من سنة الله أن يخلف على المنفق بما يسهل له من أسباب الرزق ويرفع من شأنه في القلوب ، وأن يحرم البخيل من مثل ذلك . وعلى هذا يكون وعد الله تعالى [illegible] الآخرة وهو المغفرة [illegible] لخير الدنيا وهو الخلف الذي يعطيه . وأقول ان من هذا الخلف الرزق المعنوي وهو الجاه الذي هو عبارة عن ملك القلوب فيدخل فيه ما قاله الاستاذ الامام رحمه الله تعالى ﴿ والله واسع عليم ﴾ فهو اذا وعد أنجز لسعة فضله ثم انه يعلم أين يضع مغفرته وفضله . بمثل هذا يفسرون هذه الاسماء في هذه المواضع وأقول ان اسم (عليم) يفيد هنا انه سبحانه يعلم غيب الغيب ومستقبله والشيطان لا يعلم ذلك فوعده تغرير ، لا يعبأ به العاقل النحرير ،

ومن مباحث اللفظ في الآية استعمال الوعد في الخير والشر وهو شائع لغة ثم جرى عرف الناس ان يخصوا الوعد بالخير والايعاد بالشر فاذا ذكروا الوعد مع الشر أرادوا به التهكم ، على ان ما يعد به الشيطان من الفقر هو على

---

(١) اعتام الشيء اختار عيمته والعيمة بالكسر خيار المال وكذلك العقيلة خيار الشيء والفاحش البخيل جدا والمعنى ان الموت يختار أفاضل الكرام ويصطفي خيار اموال البخلاء المتشددين في الامساك والحرص من اصطفى الشيء أخذ صفوه أي خياره أي يتحرى ما تشتد اليه حاجة أهله

تقدير الانفاق ويلزمه الوعد بالغنى مع البخل الذي يأمر به

ثم قال ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ﴾ فبين لنا بعد ذكر ما عد هو جل شأنه به وما يعد به الشيطان ما نحن في أشد الحاجة اليه للتمييز بين ما يقع في النفس من الالهام الالهي والوسواس الشيطاني وتلك هي الحكمة . فسر الاستاذ الامام الحكمة هنا بالعلم الصحيح يكون صفة محكمة في النفس حاكمة على الارادة توجهها الى العمل ومتى كان العمل صادرا عن العلم الصحيح كان هو العمل الصالح النافع المؤدي الى السعادة. وكم من محصل لصور كثير من المعلومات خازن لها في دماغه ليعرضها في أوقات معلومة لا تفيده هذه الصور التي تسمى علما في التمييز بين الحقائق والاوهام، ولا في التزييل بين الوسوسة والالهام، لأنها لم تتمكن في النفس تمكنا يجعل له سلطانا على الارادة وانما هي تصورات وخيالات تغيب عند العمل، وتحضر عند المراء والجدل، قال الاستاذ الامام ما معناه والمراد بإيتائه الحكمة من يشاء اعطاؤه آلتها — العقل — كاملة مع توفيقه لحسن استعمال هذه الآلة في تحصيل العلوم الصحيحة، والعقل هو الميزان القسط الذي توزن به الخواطر والمدركات، ويميز بين أنواع التصورات والتصديقات، فمتى رجحت فيه كفة الحقائق طاشت كفة الاوهام، وسهل التمييز بين الوسوسة والالهام، أقول وهذا القول يتفق مع ما روي عن ابن عباس من ان الحكمة هي الفقه في القرآن أي معرفة ما فيه من الهدى والاحكام بعللها وحكمها لأن هذا الفقه هو أجل الحقائق المؤثرة في النفس الماحية لما يعرض لها من الوساوس حتى لا تكون مانعة من العمل الصالح ولا شك ان من فقه ما ورد في الانفاق وفوائده وآدابه من الآيات لا يكون وعد الشيطان له بالفقر وأمره اياه بالبخل مانعا له منه . ولكن الفقه في القرآن لا يكون الا بكمال العقل وحسن استعماله في الفهم والبحث عن فوائد الاحكام وعللها، ودلائل المسائل وبراهينها، فالحبر فسر الحكمة بالاخص رعاية للمقام، والاستاذ الامام فسرها بالاعم بيانا لشمول هداية القرآن، فالآية باطلاقها وافقة لشأن الحكمة بأوسع معانيها، هادية الى استعمال العقل في أشرف ما خلق له . ومن رزىء بالتقليد كان محروما من ثمرة العقل وهي الحكمة ومحروما من الخير الكثير الذي أوجبه الله لصاحب الحكمة بقوله ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ﴾ فيكون

كالكرة تتقاذفه وسوسة شياطين الجن وحيا له شياطين الانس يتوهم أنه قد يستغني بعقول الناس عن عقله و بفقه الناس عن فقه القرآن بدعوى أنه جمع كل ما أوجبه القرآن، مع زيادة في البيان، وقد يجد في فقه الناس ان الله لم يوجب عليه غير الزكاة التي لا تجب الا بعد ان يحول الحول وهو مالك للنصاب وانه إذا هو وهب امرأته ماله قبل انقضاء الحول بيوم أو يومين ثم استوهبها أياه بعد دخول الحول الجديد بيوم أو يومين لم تجب عليه الزكاة ويمكن على هذا ان يملك ألوف الألوف من الدنانير وتمر عليه السنون والأحوال لا ينفق منها شيئا في سبيل الله و يكون مؤمنا عاملا بفقه الناس ولكنه اذا عرض نفسه على القرآن وفقه ما أنزله الله فيه من غير تقليد ولا غرور بعظمة شهرة المختالين المحرفين فانه يعلم انه يكون بهذا المنع عدوا لله تعالى ولكتابه محروما من الخير الكثير الذي آتاه تعالى لأهله

قرأنا واطلعنا على كثير من كتب الفقه التي هي عمدة المقلدين المنتسبين الى المذاهب الاربعة [illegible] ما في القرآن الكريم من الترغيب في انفاق المال في سبيل الله وبيان فوائده ومنافعه وكونه من أكبر آيات الايمان والتنفير من الامساك والبخل وبيان كونه من آيات الكفر، ولكنها تطيل فيما لم يعن به كتاب الله من بيان النصاب في كل ما تجب به الزكاة والحول وغير ذلك من المسائل التي تستقصي كل شيء الا ما ينفذ الى القلب، فيجذبه الى الرب، بعد أن ينقذه وساوس الشياطين ، ويزج به في وجدان الدين، وهذا ما عابه الامام الغزالي على هذا العلم الذي سموه فقها وقال انه ليس من فقه القرآن في شيء .

فهل يصح مع هذا أن يقال انه يمكن الاستغناء به عن فهم القرآن وفقه حكمه واسراره؟ ألم تر أن أوسع الناس معرفة به هم في الغالب أشدهم بخلا وحرصا حتى لا تكاد ترى أحدا منهم مشتركا في جمعية خيرية أو منفقا في مصلحة عامة أو خاصة بل منهم الذين يحتالون و يعلمون الناس الحيل لمنع الزكاة المعينة التي أجمعوا على أنها من أركان الاسلام .

ومنهم من يصف الجمعيات الخيرية بالبدعة و يلمز أهلها في عملهم يعتذر بذلك عن نفسه أنه لم يقبض يده عن مساعدتهم الا تمسكا بالشرع ومحافظة على أحكامه فاذا قيل لهؤلاء ان صح ما تزعمون فلم لا تنشئون جمعيات خيرية لخدمة الامة وإعلاء

شأن الملة شكوا من كل أحد الا من أنفسهم على أنهم لو فعلوا لأسرع الجماهير الى تلبيتهم لان السواد الاعظم من المسلمين ، لا يزال يعتقد أنهم هم المحافظون على على الدين ، أفرأيت من لا يعمل الخير ولا يأمر به بل يصد عنه يكون قد أوتي الحكمة التي قال الله فيمن أوتيها انه أوتي خيراً كثيراً ، أو يكون قد أوتي فقه القرآن الذي هو أخص ما فسرت به الحكمة ؟ لا نعني بما تقدم ان علم الاحكام المعروف بالفقه لا حاجة اليه بالمرة وانما نعني انه لا يستغنى به عن فهم القرآن حتى في الاحكام .

ثم أقول ايضاحا للمقام ان الله جعل الخير الكثير مع الحكمة في قرن فهما لا يفترقان كما لا يفترق المعلول عن علته التامة فالحكمة هي العلم الصحيح المحرك للإرادة الى العمل النافع الذي هو الخير وآلة الحكمة هي العقل السليم المستقل بالحكم في مسائل العلم فهو لا يحكم الا بالدليل في حكم جزم فأمضى وأيم فكل حكيم عليم عامل مصدر للخير الكثير ولذلك قال تعالى ﴿ وما يذكر الا أولو الالباب﴾ أي وما [illegible] ويتأثر به تأثرا يبعث على العمل الا أصحاب العقول الخالصة من الشوائب والقلوب السليمة من المعايب ، وهو تذييل يؤيد ما تقدم في تفسير الحكمة فنسأله تعالى أن يجعلنا من أولي الالباب ، المؤيدين بالحكمة وفصل الخطاب ، ثم قال تعالى

(٢٧٠) وما أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ

أرشدنا عز وجل في هذه الآية الى انه يجازي على كل صدقة وكل التزام لصدقة وبر لان علمه محيط بكل عمل وكل قصد لنتذكر ذلك فنختار لانفاقنا أفضل ما نحب أن يعلمه عنا فقوله ﴿ وما أنفقتم من نفقة ﴾ يشمل قليلها وكثيرها سرها وعلانيتها ما كان منها في حق ، وما كان منها في شر ، ما كان عن إخلاص ، وما كان رئاء الناس ، ما أتبع منها بالمن والاذى ، وما لم يتبع بشيء منهما ، وقوله ﴿ أو نذرتم من نذر ﴾ يأتي فيه مثل ذلك ويشمل ما كان نذر قربة وتبرر ونذر لجاج وغضب فالاول ما قصد به التزام الطاعة قربة لله تعالى بلا شرط ولا قيد لئلا يتهاون فيها كأن ينذر

نفقة معينة أو صلاة نافلة أو بشرط حصول نعمة أو رفع نقمة كقوله ان شفى الله فلانا فعلي أو لله علي ان أتصدق بكذا أو أقف على الجمعية الخيرية كذا. والثاني ما يقصد به حث النفس على شيء أو منعها عنه كقوله ان كلمت فلانا فعلي كذا. واتفقوا على انه يجب الوفاء بالأول وفي الثاني أقوال منها أنه يجب فيه كفارة يمين بشرطه ومنها انه يخير بين الوفاء بما التزمه و بين كفارة يمين ولا محل هنا لتفصيل القول فيما ورد وما قيل في النذر وانما نقول انه التزام فعل الشيء بلفظ يدل عليه كقول الناذر لله علي كذا أو علي كذا أو نذرت لله كذا و ينبغي ان يكون في طاعة لأنه لا يتقرب اليه تعالى الا بالطاعة فان نذر فعل معصية حرم عليه ان يفعلها وان نذر مباحا فعله لأن فسخ العزائم من النقص ولذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم من نذرت أن تضرب بالدف وتغني يوم قدومه بالوفاء فقد قال ان هذا مستحب لا مباح.

وقوله تعالى (فان الله يعلمه) جواب الشرط أي فانه تعالى يعلم ما ذكر من النفقة والنذر ويجازي عليه ان خيرا فخير وان شرا فشر فالكلام وعد ووعيد وترغيب وترهيب. ثم أكد ما فيها من الوعيد بقوله (وما للظالمين من أنصار) ينصرونهم يوم الجزاء فيدفعون عنهم العذاب بجاههم أو يفتدونهم منه بمالهم كقوله (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) أقول والظالمون في مقام الانفاق هم الذين ظلموا أنفسهم اذلم يزكوها ويطهروها من هذه الفحشاء (البخل) أو من رذائل الرياء والمن والاذى وظلموا الفقراء والمساكين بمنع ما أوجبه الله لهم وظلموا الملة والامة بترك الانفاق في المصالح العامة و بما كانوا قدوة سيئة لغيرهم فظلمهم عام شامل. فهل يعتبر بهذا أغنياء المسلمين يرون أمتهم قد صارت بنجلهم أبعد الامم عن الخير بعد أن كانت خير أمة أخرجت للناس؛ أما انهم لا يجهلون أن المال هو القطب الذي تدور عليه جميع مصالح الامم في هذا العصر وانهم لو شاءوا لانتاشوا هذه الامة من وهدتها، وعادوا بها الى عزها، ولكنهم قوم ظالمون، قساة لا يتوبون ولا يذكرون،

(٢٧١) إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ،

هذا حكم آخر من أحكام الصدقات يشعر بالحاجة اليه المخلصون الذين يتحامون الرياء والفخر في الانفاق وما كل مظهر للعمل الصالح مرائيا به ولكن كل مخف له بعيد عن الرياء ولذلك قال تعالى ﴿ ان تبدوا الصدقات فنعما هي ﴾ أي فنعم شيئا ابداؤها وأصلها نعم ماهي قرأ ابن كثير وورش وحفص (نعما) بكسر النون والعين وهي لغة هذيل وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بفتح النون وكسر العين على الاصل وقرأ أبو عمرو وقالون وأبو بكر بكسر النون واخفاء حركة العين (اختلاسها) في رواية واسكانها في أخرى والاولى أقيس وحكيت الثانية لغة — قال ﴿ وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ أي ان إعطاءها للفقراء في الخفية والسر أفضل من الابداء لما في الاخفاء من البعد عن شبهة الرياء ومثاره ومن اكرام الفقير وتحامي إظهار فقره وحاجته وقيل خير لكم من الخيور وليس بمعنى التفضيل. ويؤيد الاول زيادة الجزاء بقوله ﴿ ويكفر عنكم من سيئاتكم ﴾ أي ويمحو عنكم بعض سيئاتكم — وقرأ ابن عامر وعاصم في رواية حفص (ويكفرُ) بالياء أي الله تعالى وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية ابن عياش ويعقوب (ونُكفرُ) بالنون مرفوعا أي ونحن نكفر وقرأ حمزة والكسائي (ونكفرْ) بالنون مجزوما بالعطف على محل الفاء — ثم قال ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أي لاتخفى عليه نياتكم في الابداء والاخفاء فان الخبير هو العالم بدقائق الامور

بقي في الآية مبحثان (أحدهما) أن بعض المفسرين قال ان الصدقات في الآية عامة تشمل الزكاة المفروضة والتطوع فاخفاء كل فريضة خير من إبدائها وقال الاكثرون انها خاصة بالتطوع لأن الفرائض لارياء فيها وهي شعائر لاينبغي اخفاؤها وهو الذي اختاره الاستاذ الامام قال ان إبداء الفريضة إشهار لشعيرة من شعائر الاسلام لو أخفيت لتوهم منعها وذلك يوقع المتوهم فيسهل عليه المنع لما للقدوة وحال البيئة من التأثير ولا محل للرياء في الفرائض والشعائر لأن من شأنها ان تكون عامة ولأن المرائي بها لايكون مصدقا بفرضيتها ومن كان كذلك فهو كافر. أقول فاذا انقلبت الحال فصار المؤدي للفريضة نادرا لايكاد يعرف فاذا عرف أشير اليه بالبنان فهل يصير الافضل له اخفاؤها؟ الظاهر أن الاظهار في هذه الحالة يكون

آكد لأن ظهور الاسلام وقوته باظهار شعائره وفرائضه ومكان القدوة بل قال بعض العلماء ان الاظهار أفضل لمن يرجو اقتداء الناس به في صدقته وان كانت تطوعا لأن نفعها حينئذ يكون متعديا وهو أفضل من النفع القاصر بلا نزاع . فعلى هذا تكون الخيرية في الآية خاصة بصدقتين متساويتين في الفائدة إحداهما خفية والاخرى جلية فلا شك ان الخفية تكون حينئذ أفضل . ولك ان تقول ان الخيرية فيها عامة لا أنها مقيدة بقيد الحيثية كما يقولون أي ان كل صدقة خفية خير من كل صدقة جلية من حيث هي ستر لحال الفقير وتكريم له ومجنبة لنزغات الرياء . ولا يلزم من ذلك ان تكون خيرا من كل جهة فاذا وجد في الجلية فائدة ليست في الخفية كالاقتداء تكون خيرا من هذه الجهة أو الحيثية ولك أن توازن بعد ذلك بين الفضيلتين المختلفتي الجهة أيهما أرجح وذلك يختلف باختلاف حال المعطي والمعطى والقدوة فرب معط لا يقتدي به أحد ومعط يقتدي به الواحد والاثنان ومعط يقتدي به الجمهور ورب معطى يرى من العار ان يأخذ من كل أحد بفضل ان [illegible] وحده في السر ولا يحب ان يأخذ من غيره ولو في السر . وان من المنفقين من لا يخاف على نفسه الرياء اذا هو تصدق في الملأ ومنهم من لا يأمن عليها الرياء ولو أنفق في الخلوة الا ان يجتهد في ضبط نفسه لتواطئ على الكتمان على ان المخلص لا يعسر عليه ان يجمع بين اخفاء الصدقة الذي يسلم به من منازعة الرياء ، وبين إبدائها الذي يكون مدعاة للاسوة والاقتداء ، ويسهل هذا الجمع في التعاون على المصالح العامة كأن يرسل المتصدق ورقة مالية لجمعية خيرية ولا يذكر لها اسمه أو يذكره لمن يدل له المال كرئيسها أو أمينها فقط ومن دأب الجمعيات ان تشيد بمثل هذه الصدقة بألسنة أعضائها وبألسنة الجرائد التي هي أوسع طرق الشهرة في عصرنا وأبعدها مدى

ولا يبعد عن هدي الآية من يقول ان الانفاق في المصالح العامة كانشاء المدارس للتربية الملية والتعليم النافع وانشاء المستشفيات والدعوة الى الدين والجهاد ونحو ذلك يشبه إيتاء الزكاة فلا ينبغي اخفاؤه وان أخفى المنفق اسمه وان تفضيل الاخفاء خاص بالصدقة على الفقراء كما هو صريح قوله (وان تخفوها وتؤتوها الفقراء) الخ ولم يقل :

وان تخفوها وتجعلوها في سبيل الله فهو خير لكم؛ وذلك ان الصدقة على الفقير سدّ لخلة فلا يحتاج فيها الى المباراة في الاستكثار كما يحتاج في اقامة المصالح العامة ثم ان فيها من ستر حاله وحفظ كرامته مالا يجيء مثله في المصالح

وقد ورد في حديث البخاري ان من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لاظل الا ظله رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ماتنفق يمينه ومن الناس من يظن ان اخفاء كل أعمال الخير أفضل من إظهارها وأنه خير للانسان ان يكون مغمولا من ان يكون معروفا بالخير مقتدى به فأين من هذا الظن قوله تعالى (٢٨: ٥ ونريد ان نمنّ على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) وقوله عزوجل (٣٢: ٢٤ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا) الآية وقوله في بيان دعاء عباده (٢٥: ٧٤ واجعلنا للمتقين إماما) فهل يكون الامام الذي يقتدى به في الخير مغمولا مجهولا

(البحث الثاني) في أسلوب الآية [illegible] قراء؟ فدل ذلك على أن الصدقة تستحب [illegible] كل فقير وإن كان كافرا فكما وسعت رحمته الكافر فلم يحرمه لكفره من الرزق بسعيه كذلك لم يحرم عليه الصدقة عند عجزه عن الكسب الذي يكفيه · وقد ذهب بعض المفسرين الى ان الآية نزلت في الصدقة على أهل الكتابين أورد ذلك ابن جرير وحكاه عن يزيد ابن أبي حبيب · والفقهاء لم يمنعوا صدقة التطوع عن غير المسلم وانما قالوا ان الزكاة التي هي احدى أركان الاسلام خاصة بالمسلمين وكذلك زكاة الفطر · ولم يمنعوا صدقة التطوع عن مسلم ولا كافر، ولا برّ ولا فاجر، بل قالوا اذا اضطر الذمي أو المعاهد الى القوت وجب على المسلمين سدّ رمقه كما يجب عليهم سد رمق المسلم المضطر الا من أهدر الشرع دمه · وعموم نصوص القرآن والأحاديث تدل على أن الله كتب الرحمة والاحسان في كل شيء · ومن ذلك حديث الصحيحين « في كل كبد رطبة أجر » وفي رواية لغيرهما في كل كبد حرى أجر يعني في جميع الأحياء

مقالتان للاستاذ الامام (١)

(مقتبستان من دروس السيد جمال الدين وقد نشرهما في العدد ٤٩ من جريدة مصر التي كانت تصدر بالاسكندرية في ١٥ جمادى الاولى سنة ١٢٩٦)

المقالة الأولى ـ التربية

في ليلة الأحد الماضي انعقد درس الاستاذ جمال الدين الافغاني وانتظم في سلكه جم غفير من نبهاء طلبة العلم وفضلائهم وكثير من الافندية مستخدمي الدواوين وبحضر هؤلاء وأولئك شنف المسامع بمقال جليل في شأن تربية الامة وما يلزم ان يسلك من سبلها ولما فيه من عظم الفائدة رغبت في نشره في الجرائد الوطنية تعميما للفوائد وبيانا لما انطوى عليه من حسن المقاصد قال ما معناه:

اذا وجه العقل نظر الاعتبار الى الاجسام الحية بالحياة النباتية أو الحيوانية أو الانسانية علم ان قوام حياتها بتفاعل العناصر الداخلة في قوامها تفاعلا متناسبا بحيث لا يتميز أحدها [illegible] تقتضي ظهور خواصه وتسلطها على خصائص البقية فبذلك التناسب [illegible] المزاج المعتدل الحامل لروح الحياة فإن غلب أحد العناصر على سائرها واضمحلت خواص بقيتها فيه انحرف المزاج وخرج عن حد الاعتدال واستولى المرض على الجسم وكما يكون الاختلال وفساد البنية بتغلب بعض العناصر على ماسواه منها كذلك يكون بغالبة المزاج الحوادث الخارجية وغلبتها عليه كالبرد الشديد المذهب لروح الحرارة الغريزية والحر الشديد الموجب للاحتراق وتحلل الرطوبة الضرورية المنتهي الى اليبس نذير الموت والفناء

ومن ثم وضعوا علوم النباتات والحيوانات والطب البشري والبيطري ليبحث في تلك العلوم عما به يحفظ التوازن بين البسائط التي يتركب منها الجسم ويحترز من تسلط الحوادث الخارجية عليه ويعاد به المزاج الى حالة الاعتدال ان خرج عنها لتتم حكمة الله تعالى في بقاء الانواع الى آجالها المحددة بحكم الحكمة الأزلية فالنباتيون يعينون الاراضي القابلة للزراعة والغراسة لكل نبات ويحددون الفصول الملائم هواؤها لنموه ويوضحون مواد التسميد وغير ذلك مما لابد منه في تربية

(١) منقولتان من الجزء الثاني من تاريخ الاستاذ الامام الذي يطبع الآن وهما من أول ما كتبه

النباتات وكذلك الاطباء يبحثون عن مواد الاغذية وما ذا يجب ان يتخذ منها لكل مزاج ومضار الأهوية ومنافعها ويقفون بتجاربهم الصادقة على الادوية النافعة لرد البدن الى حالة الصحة وآلات العلاج المفيدة حتى تحفظ بذلك على البدن صحته ويرجع اليها ان انحرف عنها ولن يكون الطبيب طبيبا يترتب عليه غايته حتى يكون على علم بالتاريخ الطبيعي وعلوم النباتات ليعلم خواصها ويميز نافعها من ضارها، وعلى بصيرة من اختلاف الامزجة ومقتضياتها ومايلائم كل واحد على حسبه وخبيرا بعلل الامراض وأسبابها وكيفياتها من شدة وضعف وتار يخها من قدم وحدوث حتى يعالج كلاً بما يليق به فان جهل من ذلك شيئا كان فقده خيرا من وجوده فان الطبيب الجاهل رسول ملك الموت اذ بجهله يستعمل من الأدوية ما عساه يهيج المرض ويمنع من الاغذية ما يساعده على قوته فيفضي ذلك الى هلاك المريض وقد كان بدونه يحتمل الشفاء بمقاومة الطبيعة لولا مساعدة الجاهل وعونه. وكما [illegible] الطبيب ان يكون [illegible] قدما يجب ان يكون شفيقا رحيما صادقا أمينا لا يكون [illegible] من عمل المعالجة فانه ان كان قاسيا عديم الرأفة أو كان خائنا فربما صار آلة في أيدي أعداء المريض يستعملونه لهلاكه بالقائه السم في الادوية مثلا أو اهماله في العلاج بما يقدمونه اليه من العرض الفاني وكذلك ان قصر همه على ما ينال من الدينار والدرهم فانه ان كان على تلك الصفة لم يكترث بحال المريض مادام يوفى أجر عمله فان هلك فقد نال ما يزيد عن مكافأته وان امتد المرض زاد الايراد بتوارد الاوقات فعدمه أيضا خير من وجوده

وكما ان روح الحياة البدني انما يستقر حيث تجتمع أصول متضاربة ينشأ من تقابلها مزاج معتدل كامل وبغلبة أحدها يفسد التركيب ويذهب الروح الحيوي من حيث أتى كذلك روح الكمال الانساني انما يكون حيث تجتمع أخلاق متضادة وملكات متخالفة يقوم من تضادها وتخالفها حقيقة الفضيلة المعتدلة التي هي ركن ليت سعادة الانسان وعليها مدار حياته الفاضلة فان تغلب أحد الخلقين على الآخر فسد نظام الفضيلة واستحكمت الرذيلة وبات شقيا سيء الحال وسقط في مهواة التعب والعناء المفضيين الى الحين والهلاك. ألا ترى ان النفس الانسانية

لا بد لها من خلق الجرأة وخلق المخافة وهما متضادان ومن مقاومتهما على وجه معتدل بحيث يستعمل كلا فيما يليق به من المواقع تحقق فضيلة الشجاعة التي لو فقدت بتغلب المخافة لكان فاقدها عرضة لتعدي جميع الحيوانات عليه ولم يستطع عن نفسه دفاعا وكانت حياته تحت خطر يتهدده في جميع أوقاته ولوان الجرأة تغلبت على المخافة حتى ذهب أثرها كانت تهورا وعدم اكتراث بالمهالك لحق ولغير حق بدون تبصر ولا مراعاة حكمة فيلقي بروحه في مهاوي المهلكة بلا طائل يعود على نفسه أو وطنه. وكذلك لا بد من خلق الامساك والبذل وهما متخالفان متعارضان يتقوم من تغالبهما في النفس فضيلة السخاء وهي البذل في موضع الاستحقاق اذا اعتدلا ولوان الامساك تغلب على ضده حتى اضمحل فيه لامسك عن قضاء لوازمه الضرورية فلا يأتي باللائق من الاغذية والالبسة مثلا فيضر بدنه ولم يوف بحقوق مشاركيه في المعيشة كزوجه وولده أو في التعامل كجيرانه وأهل بلده فيقع الشقاق بينهم ويتأدى به الى [illegible] من مفاسد البخل الى ما لاتنحصر ولو تغلب البذل لأنفق جميع ما في يده [illegible] حتى يصبح فقيرا لايجد ما ينفقه في أزم لوازمه فيهلك وهكذا جميع الملكات الفاضلة الانسانية انما هي واسطة لطرفين متضادين لا بد من ظهور أثر كل منهما على نسبة معتدلة وبغلبة أحدهما على الآخر يختل نظام الفضيلة ولا محالة ينهدم بيت السعادة دنيوية كانت أو أخروية ولا يسعنا المقام لتفصيل ذلك. وكما يقع الفساد بتغلب أحد الضدين على الآخر في النفس يقع أيضا بتغلب أمر خارج على مزاج الفضيلة كغلبة التربية الفاسدة المغذية للعنصر الفاسد بمخالطة ذوي الملكات الرذيلة والغرائز الناقصة وانفعال النفس بحركاتهم وسكناتهم وتقليدها لاعمالهم وتقلدها بعاداتهم أو باستماع اغواء ذوي الاهواء وتمويهات أرباب الاغراض الفاسدة الدنيئة المذيعين للافكار الرديئة المؤيدين للعقائد الباطلة التي ينبعث منها سوء الاخلاق المؤدي الى فساد المعيشة فللنفوس علل وأمراض كما للابدان ذلك

ومن ثم قد وضعت علوم التربية والتهذيب لتحفظ على النفس فضائلها وتردها عليها ان اعتلت وانحرفت عنها الى جانب النقص والاعوجاج كما وضع الطب

ولوازمه لحفظ صحة البدن كما بينا فالحكماء العمليون القائمون بأمر التربية والارشاد وبيان مفاسد الأخلاق ومنافعها وتحويل النفوس من حالة النقص الى حالة الكمال بمنزلة الاطباء وكما لزم للطبيب أن يكون عالما بالتاريخ الطبيعي والنباتات والحيوانات وعلل الامراض وأسبابها ودرجاتها من شدة وضعف كذلك يلزم للحكيم الروحاني طبيب النفوس والأرواح اذا رقي منبر الارشاد ان يكون عالما بتاريخ الامة التي قام بإرشاد أبنائها وتاريخ غيرها من الامم أيضا وأن يكون مطلعا على درجات ترقيها ودركات تدنيها في جميع الازمان وان يسبر أخلاقها بمسبار الحكمة ليعلم أسباب أمراضها النفسية ويقف على درجات الداء وتمكنه فيهم وانه حديث أوقديم قوي في النفوس أوضعيف وماهو العلاج اللائق بكل صنف. وكما انه يجب على الطبيب البدني ان يكون عالما بمنافع الأعضاء وغاياتها كذلك على الطبيب الروحاني ان يكون عالما بمنافع الأخلاق ومضارها على طبق ما في نفس الامر والواقع . وكما انه [illegible] لا ينظر الى الدنايا ولا ينحط الى المقاصد [illegible] والمرشدين ان يكونوا من ذوي الاستقامة والفضيلة مرتفعي الهمم أولي مقاصد عالية لا يبيعون الفضيلة بحطام الدنيا ولا بالقرب والتزلف الى الامراء والكبراء

أولئك هم المرشدون الحقيقيون فان رزقت الامة بمثلهم فبشرها بالسعادة وان رزئت بمطببين لا أطباء، بأن صعد على منابر النصح فيها الجهلة والاغبياء، والسفلة والادنياء، فأنذرها بالعناء والشقاء، فإن المرشد الضال والنصوح الجاهل يودع النفوس رذائل الاخلاق باسم أنها فضائل ويغرس فيها جراثيم الشر باسم انها أصول الخير ولربما كان مقصده حسنا ولا يريد الا خيرا ولكن جهله يعميه عن سلوك طريقه ويبعده عن اتخاذ وسائله فتقع الارواح في الجهل المركب وهو شر من الجهل البسيط فإن ذا الثاني على باب الفضيلة لا يلبث ان فتح له ان يلجه وصاحب الاول قد بعد عن المقصد بمراحل واستتر تحت نقع الرذيلة واعتقد ذلك ظلا ظليلا فلا يمكن العدول عما وقع فيه الا بعد مكابدة شديدة وعناء طويل فلا ريب كان عدم هؤلاء المرشدين خيرا من وجودهم وكذلك ان كان خائنا أودنيئا ينحط الى سفاسف الامور أوعدم

الشفقة والانسانية فإنه يتخذ النصيحة سلما للوصول الى اغراضه الفاسدة ومطالبه الذاتية فلايبالي أوقع الافراد في خير أوشر،صفت النفوس أو تكدرت،ارتقعت الآداب أوانحطت،صحت الارواح أواعتلت ، فيكون آلة بيد الاشرار وأولي الاهواء يستعملونه في فساد الامة والعشيرة لقضاء أوطارهم

الا وان القائمين بأمر الارشاد محصرون في قبيلين قبيل الخطباء والوعاظ وقبيل الكتبة والمصنفين ومنهم أرباب الجرائد فإن كانوا على نحو الاوصاف الكاملة اللازمة لمقامهم هذا كما تقدم فقداستحقوا التعظيم والاحترام، والتبجيل والاجلال،واستوجبوا الشكروالثناء من كل قلب مخلص وقاموا بخدمة أوطانهم وأبناء بلدتهم والا استحقوا الرفض والطرد والابعاد ووجب على من يهمهم أمر الاصلاح ان يقذفوا بهم من البلاد كي لا يفسدوها [illegible] الوبائي الذي لا يقتصر ضرره على المبتلى به بل يتعداه بالسراية الى كل ما سواه

المقالة الثانية في الصناعة

قدعادحضرة الاستاذ الفاضل والفيلسوف الكامل السيدجمال الدين الأفغاني الى التدريس بعد فترة تزيد مدتها عن سنة وابتدأ حفظه الله يقرأ شرح إشارات الرئيس ابن سينا في الحكمة العقلية وهو كتاب جليل يحتوي من هذا العلم أصولا جليلة غرست أصولها في بلاد المشرق من مدة تقرب من ألف سنة الا انها نبتت فروعها في المغرب واجتنيت ثمارها لغيرغارسيها ولم تزل في بلادنا على كليتها واجمالها لم تخرج نتائجها العقلية من حد القوة الى الفعل الا أن هذا السيد الفاضل قدجمع في تدريسه بين تدقيق الشرقيين وبسط الغربيين يجمع الى الاصول فروعها والى المقدمات نتائجها والى المجملات تفاصيلها بانياً جميع أقواله على البراهين الثابتة والحجج القويمة ولما كانت دروسه العالية عظيمة الفوائد جمة الثمرات للعموم رأيت من الواجب قياما بالخدمة الانسانية ان أودع بعضها قوالب العبارات اللائقة بها والنشر طيب وفدها في صحف الجرنالات لتعم الفائدة والله يتولى التوفيق

بين حفظه الله وأثبت ان الانسان نوع من أنواع الحيوانات الارضية

(لا كما يزعمه أرباب الاوهام كالصيبيين وقدماء الفرس من أنهم من أبناء السماء فليتذكر من له فطنة) وأنه قد أتى عليه حين من الدهر وهو على مقربة منها ينشأ نشأتها ويسير في عيشه سيرتها يتفيأ ظلال الأشجار، ويسكن في الجحرة والاوكار، ليس له شعار ولا دثار. (ولكن خفيف أشمار) يقتات بنباتات وثمرات تحضرها له القدرة الالهية، على يد القوى الطبيعية، لا بصنعها يد صناعية، ولا تربية أجنبية، ليس له من المكر والتحيل الا ما لا يداني فيه الثعلب، ولا من العلم والتدبير الا ما يبعثه على الغدو لطلب قوته من الاعشاب وثمار الاشجار والرواح للاستكنان في كن يواريه عن أعين الحيوانات العادية، والفرار من المكاره الحسية، كما تفر الشاة من الذئب، والارنب من الثعلب، ولم يكن له من رفعة القدر ما يجلسه على كرسي سلطة الوجود، ويقيمه متحكما في كل موجود، ويقضي بالحكم بأنه خلاصة العالم ومنتهى سير الحقائق وعماد عالم الكون وأن جميع البسائط والمركبات انما خلقت لاجله، والكواكب والسيارات انما تجري لخدمته، بل كان ضعيفا عاجزا جاهلا حافيا عاريا يزعجه كل حادث وتنفر منه كل نابة ويهاب من كل مشكل وهيئة، والشاهد على ذلك ما تحكيه لنا أحوال الأمم التي كانها قريبة عهد بالانسانية في جنوب أفريقيا والقبائل المستمرة في قمم الجبال والآجام والغابات البعيدة عن العمران البشري المعروف الذين لم تضطرهم الحاجات ولم تسقهم الضرورات الى الانتقال من مكان الى مكان فانهم لم يزالوا على سذاجة الحيوانية وبساطة الفطرة لا يفهمون خطابا، ولا يحسنون جوابا، الا ما كان متعلقا بضرورة الحياة كجلب قوت بسيط ومدافعة عاد من الحيوانات وجميع ما يعده الانسان المتمدن كمالا وانسانية فهم بعيدون منه، عارون عنه مع بعد تاريخهم وامتداد زمن وجودهم على سطح الارض

الا أن مبدع الكون جلت قدرته لما اختص هذا النوع من بين الأنواع الحيوانية بخاصة العجز والفقر والحاجة حيث جعل جميع لوازم حياته خارجة عنه لا تحصل الا بالتحصيل وليس تحصيلها الا بعد الكد والعناء وهبه قوة عاقلة كلية التصرف، تامة القبول، ووكل تربية هذه القوة الى تعليم مدرسة الوجود الكلي فكان لكل نبات وحيوان بل لكل موجود مشهود حق الاستاذية وسابق الفضل

على نوع الانسان فاسترشد بأعمالها، واهتدى بآثارها والتقط درر الحكم من فعلها وانفعالها، وتدرج في ذلك شيئاً فشيأ تارة يخطئ، وتارة يصيب، وطورا ينجلي له الحق وآخر عنه يغيب، مرة تعوقه العوائق القدرية والارادية عن ادراك الحقائق والوصول اليها، وأخرى تجذبه الجواذب اضطرارا للوقوف عليها، حتى وصل الى ما تراه من أحواله الغريبة، وآثاره العجيبة،

ثم بين حفظه الله كيف كان يتقلب الانسان في سيره هذا ويقطع عقبات المصاعب، ويخترق حجب الجهالات، منقادا في جميع ذلك لقائد الحاجة والضرورة يأتمر بأمره، ويتبع سيره، تارة يتدرج الى الكمال فيقعده مقعد رئاسة الكون، وسلطة الوجود، بما يرشده اليه من التفنن في الفنون واختراع الصنائع، وأخرى ينحط به الى قعر جحيم الاوهام، ويقذف به في جب الخرافات، ويكبلها بقيود الاعتقادات السخيفة، ويغل يديه بسلاسل العادات والافكار الرديئة، على ان جميع اعتقاداته الفاسدة الباطلة انما نشأت له من تباين حوادث الكون [illegible] عن ذاته (الشريعة) حيث جعل لها غايات [illegible] ذلك مستشهدا في تبيانه بشواهد أحواله الآتية المشهودة، مستدلا بجميع أعماله المنقولة المعهودة

وانه في جميع مراتبه لم يكن ليقيم ظهره بين الموجودات الا بدعائم الصنائع التي هدته الى اختراعها تلك القوة العاقلة الكلية، لتكون له عوضا عما سلبه من اللوازم الضرورية والحاجية والكمالية، التي منحت لغيره من الحيوانات بأصل الفطرة، وليس ذلك بخاف على ذي شعور فان صنعة الحياكة مثلا قائمة مقام القوة السامكة للجلود الغليظة المفرزة للأشعار والاوبار الواقية لما أحاطته من صولة البرد والحر بل القائمة مقام ترس يحفظ جوهر بدنه من تمزيق عادية خصومه وصناعة الحديد والاسلحة منزلة منزلة القوة المولدة للمخالب والبراثن والانياب للسباع والضباع وعوادي الطيور وهكذا بقية الصنائع ومالم يقم منها مقام ضروري أو حاجي قام مقام كمالي على مايتضح لك بعد

واذا كانت الصنائع هي قوام هذا النوع وعليها مدار بقائه في أي مرتبة كانت رأينا من الواجب ان نعرف الصناعة ونقسمها الى أقسامها الاولية على

ماقرره الحكماء الاقدمون، وأوضحه الفلاسفة المتأخرون، ليتبين شرف كل صناعة على وجه الاجمال فنقول

الصناعة قوة فاعلة راسخة في موضوع مع فكر صحيح نحو غرض محدود الذات فالقوة منشأ الاثر مطلقا فعلا كان أو انفعالا فالمعلم مثلا ذو قوة الفعل والمتعلم ذو قوة الانفعال الا ان قوة التأثر والقبول لاتعد صناعة ومن أجل ذلك قيدت بالفاعلة وليست قوة فاعلة صناعية مالم تكن تلك القوة راسخة في موضوعها تصدر عنها أعمال مستمرة على وجه منتظم فالقوة الحالية التي تعرض آنا وآنات ثم تزول ليست منها في شيء وما لم يكن فعلها تحت سلطان الفكر فلاتدخل في مفهوم الصناعة كالافعال الطبيعية من احراق النار وتمديد الحرارة وتجميد البرودة وما شاكل ذلك فان لم يكن الفكر صحيحا كفكر السوفسطائي المنكر لبديهيات العلوم أوكان نحو غرض غير محدود الذات كاعمال الجدلي الذي أخذ على نفسه ان لا يقر قولا لقائل سواء كان حقا أو باطلا فليس الحق بغيته عنده بل قوته متوجهة الى معارضة مقابله فان كان ايجابا كان هو منفيا وان كان مثبتا كان هو سالبا فليس بصناعة

ثم ان نظر في عالم الوجود الكلي علم علم اليقين انه وان وقع كثير من صوره وكمالاته تحت قوى طبيعية كقوى النمو والجذب والدفع أوقوى احساسية كقوى طلب الغذاء مثلا في الحيوانات أو الهرب مما يؤلم الحيوان الا ان عامة أفعاله واقعة على ترتيب عقلي محكم ونعني بالترتيب العقلي مايكون مبنيا على مراعات الغايات والحكم وفوائد الكمال التي تعود على نظام الكل وتبقي بقائه فان العقل على خلاف الحس انما ينظر الكلي الباقي أولا ثم يتدرج منه الى الجزئي لا العكس

وان واضع هذا النظام العام قد خول الانسان من قوة العقل مالم يخوله غيره وجعلها محور صلاحه وفلاحه ان وجهها صوب وجهتها الحقيقية فان استعملها لغايات طبيعية أو حسية أي قاصرة على موضوعها المودعة فيه لاتفيد سواه كأن يطلب بها تنمية بدنه أوجلب مايلائم ذائقته أو شامته وما يشبه ذلك فقد أضاع تلك القوة

العالية الشريفة وسلخ عنها ثمرتها وانحط الى درجات الحيوانات بل النباتات التي لم تمنح تلك المنحة الجليلة واما من حفظ نفسه من السقوط وامسك عليها حق تلك الخاصة أعني العقل فهو الذي ينظر الى كلية العالم الكبير فيعلم ان نوع الانسان وسائر الانواع من لوازم كماله أو متمماته فيتوجه نحو حفظ ذلك الكمال ويوقن ان نوع الانسان لا يحفظ بقاؤه في عالم الوجود الا بحفظ أشخاصه على التعاقب كما نبأنا اللطيف الخبير بما أودعنا من القوى المولدة والمصورة ويتحقق ان حفظ أشخاصه وافراده انما يكون بالاجتماع والالتئام لما لكل فرد من كثرة الحاجات التي يضيق نطاق وسعه عن ان يأتي عليها في الازمنة المتطاولة مع اضطراره الى جميعها في الآن الواحد كما نراه في مواد الأغذية التي لا تحصل الا بزراعة وحصاد ودرس ثم طحن ثم عجن وخبز وطبخ وهلم جرا وجميعها أيضا يتوقف على صناعات كثيرة من حدادة ونجارة ونحوها ولوازم الاكتساء من العري وضروريات المدافعة والمكافحة مع ضواري الحيوانات وكل ذلك لا يكون الا بأعمال تستغرق أجل الشخص الواحد في تعلمها فضلا عن تحصيل ثمراتها فكيف به ان يستقل وهو محتاج الى ثمرات جميعها في كل يوم بل ساعة بساعة فلابد من التعاون في الاعمال ليعتاض كل عن ثمن عمله بثمرة عمل الآخر فيكون المجموع الإنساني كبدن ذي أعضاء ويعمل كل عضو منه للبدن لتكون عاقبته لنفسه اذ لو طلب الاختصاص — مع أنه لا بقاء له الا في ضمن المجموع — فقد طلب فقد نفسه من حيث لا يشعر فاذا علم جميع ذلك وضع نفسه عضوا حقيقيا ورکنا ثابتا يقوم بأداء عمل يعود على كلية الافراد أولا من طريق كليتهم و يعود الى شخصيته ثانيا ومبدأ هذا العمل فيه هو الذي نسميه بالصناعة فمن لم يكن ذا عمل حقيقي يفيد المجتمع الانساني و يعين على انتظام الهيئة الكلية فهو كالعضو الأشل لا فائدة منه على البدن الا تكلف حمل ثقله مع عدم التألم من ازالته فالاولى ابانته وقطعه بل ان كان لا يعمل و يسعى الى بقية الافراد في عدم العمل كالاباحية الذين يعتقدون أنه لا ملكية لأحد في مال ولا عرض حيثما جاعوا أكلوا أو شبقوا واقعوا ويبثون أفكارهم بين افراد النوع ليقتدوا بأعمالهم ويسيروا بمثل سيرهم فيتم كون الأعمال اتكالا على ما بيد الغير

حيث انه مباح لهم فان تغلبت أفكارهم بطلت الصنائع وذهب ما بيد الغير وما بأيديهم فيحتاجون الى الضروري من الاقوات وغيرها ولايجدون فيهلكون

فأولئك كالأمراض السارية مثل الجذام والزهري لابد من قطع العضو الموف « المصاب » بها والقائه في النار لئلا يتعدى ضرر مرضه الى سائر البدن ومن هـذا القبيل الفساق والفجار وان لم يكونوا اباحيين فان أعمالهم قد تكون قدوة لغيرهم فيأتي من ضررهم ما أتى من أولئك فينبغي ان يعاقبوا و يؤدبوا ويحال بينهم وبين أعمالهم هـذه بكل ما يمكن وان كان بالتعذيب حتى يستقيموا أولا يقيموا

ومن الناس من مثله مثل الأمراض الغير السارية والاعضاء الزائدة كمن أصيبوا بالآفات المانعة لهم من تعاطي الاشغال كالكسحاء والبله والمعاتيه فلابد ان يتحمل ثقلهم ان لم يمكن استشفاؤهم فرارا من ألم القلب عند اختراقهم واقتطاعهم لما لهم من العذر القائم [illegible] ومعطلو العقل أو معطل فيهم آلات خدمته فهو غير مطالب [illegible] المفروضة [illegible] حقوقه الا ان الحق الأعلى قد بث في النفوس وأودع في القلوب النفرة الكلية من هؤلاء وأولئك الذين لم يقوموا بالواجبات التي تقتضيها منهم صورة الانسانية فهم مبغوضون في النفوس مطرودون من زوايا القـلوب ساقطون عن نظر الاعتبار بل هم ملومون من أنفسهم أيضا اذ يجد كل واحد منهم من نفسـه عند ما يخلو بها أنه خسيس منحط الدرجة رديء العاقبة وان كان شقاؤه يغلب عليه فيا بعـد فانظر الى حكمة ربك كيف تنبه الغافل وتؤيد العاقل ولكن أكثرهم لا يعقلون

واماذوو البطالات ومن رفضوا الأسباب ووكلوا أنفسهم الى التوكل الكاذب اذلم يتحققوا معنى التوكل وظنوا أنه عبارة عن معارضة سنة الله التي قد خلت في عباده ودعوا ذلك تبتلا وانقطاعا عن عالم الظاهر مع أخذهم الكشكول التكفف وخلعهم جلباب التعفف فهم بمنزلة شعر الابط لاينشأ عن تكاثفه سوى عناء الملك واستجلاب بعض العفونات ان لم يتعهد بالتطهير ويستحب ازالتهم وتنقية الهيئة الاجتماعية من درنهم فان بلغ من أمرهم ان يتخذوا ذلك أمرا يدعى اليه

وذهبوا في الناس يحولون وجوههم عن الاعمال ويقلدون أعناقهم سبح المكر والحيلة ويسربلونهم بسرابيل التمويه والتزوير ويغرونهم بتأبط هراوة الشر واقتناء قدح الطمع ويدعون نفوسهم اخلاق الشيطان من حب الرئاسة الكاذبة وطلب الدنيء من الدنيا من كل وجه والحقد والحسد والعداوات وغير ذلك ويحجبون ذلك بأستار من التلبيس (الغير المنتظم) ثم يوصونهم أن أخرجوا أيديكم من تحت تلك الاستار طالبين انتهاب أموال الناس والاستئثار بثمرات اكتسابهم باسم انهم وانهم وانهم (كما نرى) وجب إلحاقهم بالاباحيين وتحتم على كل ذي شعور من بني النوع ان يسعى لقطع دابرهم واستئصال شأفتهم كيلا يفسدوا أفكار العامة وأعمالهم ويعود وبال ذلك كله على العامة والخاصة معا . وبالجملة حيث تبين ان لا قوام للانسان الا بالصنعة فمن أخل بوظائفها أورامها بالنقد فقد عمد الى هدم بنيان الانسانية فعليها ان تطرده من أبوابها وتمحوا اسمه من كتابها

ثم ان الصنعة على الوجه المتقدم تنقسم الى أقسام اما نافعة ضرورية أو غير ضرورية واما أن تكون كثيرة النفع أو غايته أو متممة لعمل الطبيعة أو مزينة له فالقسم الاول كالحدادة لانها مما يحتاج اليه جميع الصناعات العملية والثاني كتفصيل الثياب مثلا والثالث هو ما يكون الغاية منه نفع الانسان لا غير كالحكمة التي هي مقننة القوانين وموضحة السبل وواضعة جميع النظامات ومعينة جميع الحدود وشارحة حدود الفضائل والرذائل وبالجملة فهي قوام الكمالات العقلية والخلقية ومن هذا القسم الحكومة العادلة والرابع (أي الذي هو خير بالواسطة) كالزراعة والكتابة فإن لها غايات سوى نفس الانسان لكنها تؤول اليه والخامس (وهو الكثير النفع) كالتجارة والتجارة مثلا والسادس كصناعة الصيد وما شاكلها والسابع كعلم الطب المتمم لأفعال القوى الحيوانية المساعد لها على اتمام وظائفها والثامن كالصباغة والنقش والتلوين وغير ذلك

ثم ان شرف كل صناعة وكل فن بعموم موضوعه وشمول غايته وان أعم الاقسام موضوعا هو صناعة الحكمة لما بينا من انها الباحثة عن كل ما يلزم للانسان اتخاذه في أعماله وأفكاره واخلاقه فهي أشرف الصناعات والحدادة وان كانت عامة لكنها من الحكمة بمنزلة الخادم المقاد من السيد الحاكم الآمر

الشيخ محمد عبده

(هذا عنوان الفصل السابع من تقرير اللورد كرومر عن مصر والسودان لسنة ١٩٠٥ قال)

اختطفت المنية في السنة الماضية رجلا مشهورا في الهيئة السياسية والاجتماعية بمصر اريد به الشيخ محمد عبده فأحببت أن أسطر هنا رأيي الراسخ في ذهني وهو أن مصر خسرت بموته قبل وقته خسارة عظيمة

لما أتيت مصر القاهرة سنة ١٨٨٣ كان الشيخ محمد عبده من المغضوب عليهم لانه كان من كبار الزعماء في الحركة العرابية . غير أن المغفور له الخديوي السابق صفح عنه طبقا لما اتصف به من الحلم وكرم الخلق فعين الشيخ بعد ذلك قاضيا في المحاكم الاهلية حيث قام بحق وظيفة القضاء مع الصدق والاستقامة وفي سنة ١٨٩٩ رقي الى منصب الافتاء الخطير الشأن فاصبحت مشورته ومعاونته في هذا المنصب ذات قيمة عظيمة ثمينة لتضلعه من علوم الشرع الاسلامي مع ما به من سعة العقل واستنارة الذهن واذكر مثالاً على نفع عمله الفتوى التي افتاها في ماذا كان يحل للمسلمين تثمير أموالهم في صناديق التوفير فقد وجد لهم بابا به يحل لهم تثمير أموالهم فيها من غير ان يخالفوا الشرع الاسلامي في شيء (١)

أما الفئة التي ينتمي الشيخ محمد عبده اليها من رجال الاصلاح في الاسلام فمعروفة في الهند أكثر مما هي معروفة في مصر ومنها قام الشيخ الجليل السيد

(١) قد علم قراء المنار من قبل أنه لما قال الاستاذ الامام بذلك جمع الامير طائفة من علماء المذاهب عنده فنظروا واتفقوا على الطريقة وكتبوا ما قدمه الامير للحكومة وهي عرضته على المفتي وعملت بما أقره

أحمد الشهير الذي انشأ مدرسة كلية في عليكده بالهند منذ ثلاثين عاما. والغاية العظمى التي يقصدها رجال هذه الفئة هي اصلاح عادات المسلمين القديمة من غير ان يزعزعوا أركان الدين الاسلامي أو يتركوا الشعائر التي لا تخلو من أساس ديني. فعملهم شاق وقضاؤه عسير لأنهم يستهدفون دائما لسهام نقد الناقدين وطعن الطاعنين من الذين يخلص بعضهم النية في النقد ويقصد آخرون قضاء اغراضهم وحك حزازات في صدورهم فيتهمونهم بمخالفة الشرع وانتهاك حرمة الدين

اما مريدو الشيخ محمد عبده واتباعه الصادقون فموصوفون بالذكاء والنجابة ولكنهم قليلون وهم بالنظر الى النهضة الملية بمنزلة الجيروندست في الثورة الفرنسوية فالمسلمون المتطرفون المحافظون على كل أمر قديم يرمونهم بالضلال والخروج عن الصراط المستقيم فلا يكاد يؤمل أنهم يستميلون هؤلاء المحافظين اليهم ويسيرون بهم في سبيلهم. والمسلمون الذين تفرنجوا ولم يبق فيهم من الاسلام غير الاسم مفصولون عنهم بهوة عظيمة. فهم وسط بين طرفين وغرض انتقاد الفريقين عن الجانبين كما هي حال كل حزب سياسي متوسط بين حزبين آخرين غير أن معارضة المحافظين لهم أشد وأعم من معارضة المصريين المتفرنجين اذ هؤلاء لا يكاد يسمع لهم صوت

ولا يدري الا الله ما يكون من أمر هذه الفئة التي كان الشيخ محمد عبده شيخها وكبيرها فالزمان هو الذي يظهر ماذا كانت آراؤها تتخلل الهيئة الاجتماعية المصرية أولا. وعسى الهيئة الاجتماعية ان تقبل آراءها على توالي الايام اذ لا ريب عندي في ان السبيل القويم الذي ارشد اليه المرحوم الشيخ محمد عبده هو السبيل الذي يؤمل رجال الاصلاح من المسلمين الخير

منه لبني ملتهم اذا ساروا فيه . فأتباع الشيخ حقيقون بكل ميل وعطف وتنشيط من الأوربيين

ولعلهم يجدون بعض التنشيط من نقلي قولا لرجل من أهل دينهم وصف فيه المعارضة التي لقيتها مدرسة عليكده الكلية المذكورة آنفا والطريقة التي تغلبوا بها على تلك المعارضة

بعد ماوصف السيد محمود قلة اهتمام المسلمين في الهند بتعلم العلوم منذ أربعين أوخمسين سنة قال «وكان هؤلاء السادة المسلمون متأثرين من قلة تقدم المسلمين في تعلم العلوم العالية غير انهم كانوا مستائين من أنفسهم أيضاً ومتحسرين على العلوم التي أهملوا تعلمها . ولكنهم لم يكونوا ممن يكتفي بالتشكي والتحسر [illegible] بل [illegible] تعلموا علة الشر وأصل البلوى [illegible] على الكشف [illegible] أيضا فانشأوا جمعية شيخها السيد أحمد خان الذي قضى العمر مجاهداً في سبيل تهذيب العقول بالعلوم والمعارف وجعلوا غايتها العظمى البحث عن وجود الاعتراض التي يعترض بها المسلمون على التعليم الذي تعلمه حكومة الهند في مدارسها ومعرفة التعليم الذي يرجون استبداله به . فاتضح لهم ان الرجوع الى أساليب التعليم التي كانت متبعة في الشرق قديما أضحى ضربا من المحال . ورأوا على مابهم من الاكرام والاحترام لتقاليد السلف والاستعظام لكنوز العلوم والآداب التي توارثوها عن آبائهم ان التعليم الذي يرقي قومهم الى درجة تلائم التمدن المحيط بهم ويردهم الى مقام يشعر فيه بنفوذهم وتأثيرهم انما هو التعليم المبني على الاعتراف بتقدم العلوم الواسع الابواب ، الدقيق الدروس ، المحبب الى المتعلم كل أمر بديع عجيب في علوم البلدان الأخرى وآدابها

وفلسفتها فكانت هذه السعة منهم في العقل والاصالة في الرأي اعظم خطر على مشروعهم في بادىء الامر لأنهم لو دعوا جموع المسلمين الى قبول رأيهم المبني على مبادىء لاتخالف الدين الاسلامي بالذات بل تخالف التفاسير التي يفسرها أكثر المتدينين به لاستفزت الدعوة جموع المسلمين الى المعارضة واقامت على الجمعية القيامة . وكانت الجمعية تعلم ذلك وتصبر عليه لانتظارها الفوز في النهاية فبقيت مدة وليس من يؤيدها عن طيب نفس حتى ضعفت المعارضة شيئا فشيئا امام شجاعة المصلحين وثباتهم • ثم أيدهم رجال خطيرو الشأن مثل المرحوم السر سالارجنك تأييدا ماديا من جهة ومعنويا من أخرى في اعتبار الذين يعدون الاسم العظيم ضمانا عظيما . وكان أعضاء هذه الجمعية مختصين بالاخلاص ونزاهتهم عن كل غاية شخصية فزالت الاوهام بعد ادراك حقيقة دعوتهم الزهيدة وانقلب بعض الذين كانوا ألد خصومهم الى أشد الأنصار غيرة عليهم . وقد مضى ثلاثة عشر عاما (١) على اجتماع الجمعية لوضع مشروعها وظني أن الذين كانوا أقوى أعضائها آمالا في نجاح مسعاها لم يكونوا يتصورون أنها تنجح النجاح السريع الذي عاشوا حتى شاهدوه» انتهى اه

أقول في تلك المدرسة الآن ٧٠٠ طالب ولو كانت تسع غيرهم لكان فيها أكثر منهم ومعظم الذين فيها من الهند ومنهم طلبة من بلاد الصومال وفارس وبلوخستان وبلاد العرب وأوغندة وموريتيوس ومستعمرة الرأس وبقيني انه لو قصدها الطلاب من مصر لاستقبلوا فيها بالسرور والبشاشة وأنزلوا على الرحب والسعة

---

(١) هذا كتب منذ اعوام

(وقال في أواخر الفصل الذي تكلم فيه على المحاكم الشرعية (ص ١٣٢) ما نصه:

« هـذا واني أوافق السر ملكولم مكاريث على ما قاله عن الضربة الثقيلة التي أصابت الاصلاح من هذا القبيل بموت المرحوم الشيخ محمد عبده فقد اشرت الى خدمات ذلك الرجل الجليل في فصل آخر من هذا التقرير وأعود فأبسط الرجاء أيضا ان الذين كانوا يشاركونه في آرائه لاتخور عزائمهم بفقده بل يظهرون احترامهم لذكراه أحسن اظهار بترقية المقاصد التي كان يرمي اليها في حياته » اه

أما ماأشار اليه من كلام السر ملكوم مكاريث المستشار القضائي في تقريره عن المحاكم فها هو بنصه

ولا يسعني ختم ملاحظاتي على سير المحاكم الشرعية في العام الماضي بغير أن أتكلم عن وفاة مفتي الديار المصرية الجليل المرحوم الشيخ محمد عبده في شهر يوليه الفائت وأنا بدي شديد أسفي على الخسارة العظيمة التي أصابت هـذه النظارة بفقده فقد كان خير مرشد لنا في كل مايتعلق بالشريعة الاسلامية والمحاكم الشرعية وكنا نرجع اليه كثيرا للتزود من صائب آرائه والاستعانة بمساعدته الثمينة وكانت آراؤه على الدوام في المسائل الدينية أو الشبيهة بالدينية سديدة صادرة عن سعة في الفكر كثيرا ما كانت خير معوان لهذه النظارة في عملها. وفوق ذلك فقد قام لنا بخدم جزيلة لاتقدر في مجلس شورى القوانين في معظم ما أحدثناه أخيرا من الاصلاحات المتعلقة بالمواد الجنائية وغيرها من الاصلاحات القضائية اذ كان يشرح للمجلس آراء النظارة ونياتها ويناضل عنها ويبحث عن حل يرضي الفريقين كلما اقتضى الحال ذلك وانه ليصعب تعويض ماخسرناه بموته نظرا لسمو مداركه وسعة اطلاعه

وميله لكل ضروب الاصلاح والخبرة الخصوصية التي اكتسبها أثناء توظفه في محكمة الاستئناف وسياحاته الى مدن أوربا ومعاهد العلم . وكانت النظارة تريد ان تكل اليه أمر تنظيم مدرسة القضاة الشرعيين المزمع انشاؤها ومراقبتها مراقبة فعلية . أما الآن فانه يتعذر وجود أحد غيره حائز للصفات اللازمة للقيام بهذه المهمة ولو بدرجة تقرب من درجته

فلكل هذه الاسباب اخشى ان نظارة الحقانية ستظل زمناً طويلا تشعر بخسارتها بفقده اهـ كلام المستشار

العبرة في كلام اللورد كرومر

من تأمل كلام اللورد في هذا الفصل وتلك الشذرة استفاد منه ضروبا من العبرة والحكم تدل على ان هذا الرجل الاجتماعي الحكيم قد علم من شؤون المسلمين — وهو أجنبي — ما لم يعلمه الروحانيون من علمائهم وأمرائهم، فضلا عن أوساطهم ودهمائهم، فرأينا أن نبين ذلك مع شيء من الشرح والرأي

العبرة الاولى بيانه لحال المسلمين

ذلك أنه قسم المسلمين الى ثلاثة اقسام — (الاول) المتعلمون المحافظون على كل قديم جروا عليه وهم السواد الأعظم ونقول انه قد بلغ من تنطعهم في جمودهم على ما ألفوا أن كان من أشد الصعوبات التي لاقتها الدولة العلية في سبيل التعليم العسكري في طرابلس الغرب محافظة الأهالي على زيهم المعروف وحسبانه من أمور الدين وإن أهل مراكش لأشد تنطعا وجمودا على ذلك ولا يخفى على من شاهدوا حركات العساكر في الحرب أوفي التعليم أن لبس البرنس والرداء المعروف بالحرام من عوائق خفة الحركة وموانع اتقان كثير من الأعمال التي تتوقف عليها البراعة العسكرية . ولا يختلف عاقلان في كون البراعة في الأعمال العسكرية ومن أهمها خفة الحركات والنظام في النقل والانتقال هي أعظم أسباب الفوز والظفر . فهذه

عادة ليست مما توجبها عقائد الدين ولا عباداته ولا فضائله وآدابه قد صارت عقبة كؤدا في طريق رقي المسلمين ، وعزة الاسلام وحماية الدين ، فما بالك بغيرها من العادات ، التي تقوم على إلحاقها بالدين بعض الشبهات ، وهذا القسم من المسلمين تابع في صلاحه وفساده لشيوخ العلم الديني وشيوخ الطريق الذين ينتمون إلى الصوفية فهولا يصلح الا اذا صلحوا وأصلحوا أو زال اعتقاده بزعامتهم الدينية وقيض له بعد ذلك مصلحون آخرون .

(القسم الثاني) المتفرنجون الذين ليس لهم من الاسلام الا اسمه ولله دره ما أدق فكره اذ عرف أنهم مارقون من الدين ساقطون من نظر الاعتبار لا قيمة لهم في أنفسهم ، ولا صوت لهم في أمتهم ، وسنعود الى ذكر ذلك

(القسم الثالث) المصلحون الذين يريدون اصلاح حال المسلمين الاجتماعية مع المحافظة على الدين لعلمهم ان كل فساد طرأ عليهم فمنعهم عن مجاراة الامم في أسباب العزة والقوة انما هو من العادات والبدع لا من جوهر الدين .

وقد ادرك المورد بثاقب فكره ان هذا القسم هو الوسط الذي يرجى خيره بين المتطرفين في جمودهم والمتهتكين في تفرنجهم . قال ان هذا الحزب معروف في الهند أكثر مما هو معروف في مصر وان منه السيد أحمد خان مؤسس مدرسة عليكده الكلية منذ ثلاثين عاما . ونقول ان الزمن الذي قام فيه أحمد خان بعمله هذا هو الزمن الذي كان السيد جمال الدين الافغاني يبذر فيه بذور الاصلاح في مصر بمساعدة الشيخ محمد عبده الذي تلقى عنه وتخرج على يديه (ونرى في هذا الجزء مقالتين من المقالات الاصلاحية التي تلقاها عنه ونشرها في جريدة مصر التي كانت أنشئت بارشاده) وكان السيد جمال الدين فيما نظن أقدر من السيد أحمد خان على الاصلاح لولا أنه فتن بالسياسة فحالت دون إتمام عمله في مصر ولم تمكنه من عمل يذكر في غيرها سوى ما كان يكتبه في أوربا من المقالات الموقظة . لذلك كان الاستاذ الامام جازما بأن مسالمة السياسة واتقاءها شرط للتمكن من الاصلاح كما يناتي في ترجمته .

وغرضنا من هذه الكلمات بيان أن مسلمي الهند لم يسبقوا مسلمي مصر الى الاشتغال بالاصلاح وانما فاقوهم بمدرسة العلوم الكلية التي أسسها أحمد خان وقد عزم الاستاذ

الامام أن يؤسس فى مصر مدرسة خيرا منها لكن المنية عاجلته قبل ذلك فقدمات قبل وقته كما قال اللورد وقال كل عاقل عرفه

وليعلم مسلمو مصر أن مدرسة العلوم فى عليكده لم تنجح الا لأن مؤسسيها كانوا من عهد زعيمهم السيد أحمد خان الى الآن على وفاق مع السلطة الانكليزية وتحسين للظن بها فكانوا خيرا لملتهم ممن جعلهم سوء الظن والكره بين معاد لعلوم الافرنج النافعة وبين خائف من كل عمل نافع لملته، وأن الاستاذ الامام كان على هذا الرأي أي أنه لا بد لنا من العمل النافع للاسلام والمسلمين مع تحسين الظن بأن الانكليز لا يعارضوننا فى ذلك ولا يمنعوننا مما ينفعنا الا اذا أدخلنا فيه السياسة وقصدنا مضارتهم ومقاومتهم وحينئذ تكون أضر على أنفسنا وأنفع لهم كما هي سنة الله تعالى فى كل جاهل ضعيف يقاوم عالما قويا . وسأوضح هذه المسألة فى موضع آخر

اما ما أشار اليه اللورد من معارضة المسلمين للسيد أحمد خان وحزبه فلا يتوقع نظيره من مسلمي مصر [illegible] كانوا يعادون جميع العلوم التي يصفونها بالجديدة أو بالأوربية ويعدونها آفة الدين والمصريون ليسوا كذلك وانما كان المتنطعون من أهل الجمود يخافون الاستاذ الامام على الدين من جهة تعليمه للدين اذ كانوا يظنون انه ينصر مذهب الفلاسفة أو المعتزلة على مذهب أهل السنة فلما قرأ العقائد والتفسير فى الأزهر زال ذلك الظن بتمادي السنين وعلم أهل الأزهر كافة أنه ينصر مذهب السلف على كل مذهب يخالفه ولا يقدم على ما نطق به الكتاب ومضت به السنة النبوية قولا لقائل . فانحصرت بعد ذلك معارضة الاصلاح الذي كان يحاوله فيمن يعرف اللورد وغيره من أهل البصيرة أنهم انما يعارضونه لاسباب شخصية بل صرح اللورد بذلك . لهذا كان كل شيء يخترعونه للطعن فيه يكون سببا لزيادة عرفان الناس بفضله حتى ان السواد الاعظم من الأمة المصرية صار معه في أواخر مدته . ولا ينافي هذا قول اللورد ان مريدي الشيخ واتباعه الصادقين قليلون فانه يعني بهذا الصادقين في طلب الاصلاح والعارفين بطرقه وهم قليلون بالطبع ولكن الذين يوافقونهم ويحسنون الظن فى طريقتهم كثيرون جدا بل هم الاكثرون. فعسى أن يوفقهم الله للمضي في العمل الذي كان إمامهم متوجها اليه وعند ذلك يظهر

صدق قولنا لاسيما اذا علم الناس ان الحكومة وما وراءها من القوة راضية أو غير ساخطة على عملهم

بلغ من مقاومة السيد أحمد خان ان كان يطعن فيه على المنابر واستفتى بعض علماء الحرمين في أمره فأفتوا بكفره ولم تبلغ مناهضة الاستاذ الامام في شدتها هذا المبلغ . ذلك بأنه كان أقدر على الاحتجاج بالدين لما يدعو اليه وأبعد من السيد أحمد خان عن الشذوذ وان مناهضيه أقل غباوة واضعف ارادة والأمة أيه منهم وأقرب الى قبول الاصلاح من أهل الهند

العبرة الثانية ثناؤه على الامام

صفوة العبرة الاولى ان اللورد عارف من أحوال المسلمين مالا يعرفه أمراؤهم وعلماؤهم فيعتد بقوله فيهم . واما العبرة الثانية فيؤيدها ما في ثنائه على الرجل وحزبه من الانصاف وعرفان الفضل لأهله وما في تشبيهه هذا الحزب من قصد الخير وقد زاد هذا الثناء قيمة صدوره بعد نشر كتاب [illegible] وضعه كاتب افرنجي اسمه (غورفيل) وطبعه بالمقتبس الاحكام الوالفرنسية وقد اشتهر الكتاب بفصل فيه معزو الى فقيدنا المرحوم فيه انتقاد شديد على الحكومة المصرية والمحتلين الذين يدبرون أمرها ويديرون دفتها وقد ترجمته أكثر الجرائد العربية اليومية ولكن الرجال العظام تبني أحكامها على الصفات والأعمال ، لا يصدها عن مقاصدها قيل وقال ، واللورد ونظار الحكومة ومستشاروها قد تعودوا من فقيدنا المرحوم قول الحق الذي يعتقده في كل مايخاطبهم به خطابا رسميا أو غير رسمي وناهيك بتقريره عن المحاكم الشرعية ومناقشته لناظر المعارف في مجلس الشورى في انتقاد التعليم بمدارس الحكومة ، وقد كان اللورد العظيم يضع آراءه غير الرسمية موضع الاعتبار كرأيه في ضرر إلغاء النيابة العمومية وكانت الحكومة قد عزمت على ذلك وكادت تنفذه فرجعت عنه

فهل يعتبر بهذا رجالنا الذين منعهم الجبن ان يقولوا لكبراء المحتلين ما يعتقدون في المصالح والأعمال ؟ ألا يكفيهم ثناء اللورد والمستشار القضائي على الاستاذ الامام بما أثنيا به بعد موته واحترامهما وسائر كبراء المحتلين له في حياته برهانا على أن القوم رجال جد يجلون من يقول الحق في السر والجهر ويعمل بالاخلاص

في الحنفية والملن سواء وافق رأيهم أو خالفه مالم يكن حرباً لهم ، وأنه لا قيمة لأهل الدهان والرياء في أنفسهم وحسبنا هذا الايجاز في هذا المقام

هذا وليعلم الذين يقولون ان الورد لم يكتب في الرجل أكثر مما يجب أو ينتظر أولم يوفه حقه ان تقرير الورد ليس تاريخاً لمصر ولا كتاباً في مناقب العلماء والحكماء وإنما هو تقرير رسمي عن مالية مصر والسودان وإدارتها وحالتها العمومية فالذي ينتظر ان يقال فيه عن مفتي الديار المصرية انه رجل جليل مصلح قد قام بأعماله في الحكومة خير قيام ، أو ما في معنى هذا الكلام ، ولكن الورد قد زاد على ذلك ما رأيت في الكلام عن حزب الرجل وتفضيله على سائر المسلمين وتنشيطه وحثه على ترقية المقاصد التي كان يرمي اليها إمامه

وإني رأيت مريدي الاستاذ الامام بما ذكرت الورد ما كتبه قادرين إياه قدره راجين ان يصدق عليهم طه الحسن



العبرة الثالثة حث الاوربيين على تنشيط حزب

اني لأعلم ان بين الناس من يعجب لقول الورد « واتباع الشيخ حقيقون بكل ميل وعطف وتنشيط من الاوربيين » و بعضهم يضعه موضع الظنة لاعتقاد المسلمين أن الاوربيين أعداء لهم لا يريدون لهم اصلاحاً ولا خيراً وانما يريدون الخير لقومهم خاصة فكيف يحث الورد أهل أوربا كافة على تنشيط حزب مصلح ينفع المسلمين بل لا ينفعهم غيره كما قال . والجواب عن هذا الاشكال لا يفهمه الا من عرف كنه الفتح أو الاستعمار الاوربي وقد سبق لنا فيه قول ونقول هنا كلمة وجيزة فيه .

ان غرض الاوربيين من كل بلاد يدخلونها بالفتح أو باسم الحماية أو الاحتلال الموقت أو غير ذلك من الاسماء هو الكسب ولا ينمو الكسب الا بالعمران فهم يحبون عمران البلاد التي يتبوءونها ومن ثم سموا ذلك استعماراً . وعمران كل بلاد انما ينمو ويعظم على قدر اتفاق أهلها مع المستعمرين عليه وهذا الاتفاق يتوقف على أمور أوطأها في المرتبة معرفة كل من الفريقين الآخر ليكون في وفاقه وخلافه على بصيرة ومن كان أعلم بالآخر كان أجدر بالفوز عند التنازع مع تساوي القوة

فكيف اذا كان الأعلم هو الأقوى. ولكن الأوربيين لا يحبون ان ينازعوا ويقاوموا وان كانوا واثقين بالظفر لان ذلك يقلل من كسبهم. ومتى قبضوا على ناصية السلطة في بلاد أمنوا من مقاومتها بالقوة وانحصر حذرهم في مقاومة الأمة لهم بالفتن وان كل عمل يراد في البلاد يعسر تنفيذه اذا كان سواد العامة مقاوما له فاذا كان هذا السواد بحيث يخشى خروجه على السلطة كانت موارد الكسب على خطر

ثم ان الاوربيين يرون أن أعظم مثار الفتن التي ربما تفضي الى الخطر على موارد كسبهم الذي يطلبونه بنشر مدنيتهم واستعمارهم للأرض هو ما عليه عوام المسلمين من الاستعداد للتهيج باسم الدين ورب هيجة شومى يقوم بها بعض الدجالين الذين تعتقد العامة صلاحهم أو بعض زعماء السياسة تذهب بعمل سنين طويلة —

لهذا كله كان من مصلحة الأوربيين في بلاد الشرق ان يوجد حزب نير الفكر محب للاصلاح الذي يعرّف العامة بقدر أنفسهم و بنسبتهم الى الاجانب الذين يعيشون معهم ويزيل التعصب الاعمى الذي تقودهم به الى التغرير الغارون ويدعوهم الى أعمال إن أضرت بالاجانب قليلا فقد تضرهم كثيرا. فالاجانب العقلاء العارفون بكنه الشرق كاللورد كرومر وأضرابه من ساسة الانكليز يحبون هذا النوع من الاصلاح الذي ينفع المسلمين لانه ينفعهم هم أيضا لانهم يحبون ان يكسبوا بهدو وطمأنينة كما قال المنار غير مرة ولكن قلما يذهب بهم الميل الى السعي في ايجاده أو الحث عليه لان مصلحتهم قائمة بدونه، قائمة بقوة العلم والحكمة، وقوة السلاح والوحدة، فاذا وجد فيهم من يحث عليه كانت السياسة منه تابعة للفضيلة الشخصية وما أجدر اللورد كرومر بذلك

مثل هذا الاصلاح لا يأتي من جانب المتفرنجين لانهم لا قيمة لهم في نفوس السواد الأعظم لبعدهم عن الدين فلا بد من حزب وسط بين العامة وبين المتفرنجين يكون له جانب الى النظام والمدنية وجانب الى الدين النقي السالم من الخرافات التي هي مثار الفتن والآفات. ولا شك ان الحزب الذي كان يرأسه الاستاذ الامام لا غرض له الا إزالة البدع والأوهام التي ألصقت بالدين والجمع بينه وبين مصالح الدنيا. ومن أركان الاصلاح الذي يرمي اليه أخذ كل ما ينفعنا ولا يعارض ديننا من علوم أوربا ومدنيتها. اما العلوم الحقيقية فلا شيء منها يخالف الدين

الحق وأما أعمال المدنية فمنها النافع لنا كالجمعيات الخيرية والعلمية والدينية والأدبية والشركات المشروعة ومنها الضار كالخمر والميسر والفجور . و يعتقد هذا الحزب أنه لا يمكن لنا القيام بهذا الاصلاح الا باتقاء السياسة فيه واجتناب مقاومة السلطة به و يجعل مداره على تربية النفوس بالدين وترقية شأن البلاد الاجتماعي والاقتصادي وترك السياسة لاهلها . ذلك أن سياسة هذه البلاد هي عبارة عن مسألة الاحتلال وقد سألت الاستاذ الامام عن رأيه فيه عند ما زار طرابلس منذ بضع عشرة سنة فقال انها مسألة أوربية لاشأن لنا فيها وانما الشأن فيها لدول أوربا ذات المصالح في مصر مع السلطان فاذا اتفقت هذه الدول على الجلاء كان ، وهو ما لا دليل عليه الآن . هذا رأي إمامنا رحمه الله في المسألة المصرية وقد قالت أوربا كلمتها فيها بلسان اتفاق ابريل سنة ١٩٠٤ فلماذا لا نشتغل بما يطاوعنا في استطاعتنا من ترقية أمتنا بالتربية والتعليم ونترك ما لا طاقة لنا به ولا يأتي منه الا الضرر وأقل هذا الضرر تحويل قلوب الامة [illegible] ظاهرا وباطنها

ههنا يقول المعترض سلمنا ان طريقة هذا الحزب هي المثلى في إصلاح حال المسلمين ، وان منتهى الحكمة فيها مسالمة الاوربيين ، لكن مثل اللورد كروم في بعد نظره وثاقب رأيه لا يعزب عنه ان المسلمين اذا ساروا على هذه الطريقة ارتقوا ارتقاء حقيقيا يحول دون دوام السلطة الانكليزية فيهم فكيف يركب هذا الصعب ، أو يكون حاديا لهذا الركب هذا الحزب ، والجواب عن هذا سهل وهو ان طريقة هذا الحزب الجامعة بين الفائدتين في الحال قد تكون جامعة بينهما في الاستقبال ، فان الامة اذا سارت في طريق الترقي مع المسالة وحسن التفاهم بينها و بين هؤلاء القوم ولقيت منهم التنشيط والمساعدة على رقيها في ابان ضعفها وعجزها فهي لا تترك صداقتهم في طور قوتها وهم لا يتركون صداقتها و يمكنهم ان يربحوا منها في طور القوة والاستقلال ، أكثر مما يربحون في طور الضعف والاختلال والانكليز هم القوم الذين لا يعاندون الطبيعة وانما يسايرونها و يستفيدون من كل طور من أطوارها بحسبه . ولعلي لا أكون واهما اذا قلت ان فرنسا لو وجدت في الجزائر حزبا يعمل لترقية شأن المسلمين ، مع التوفيق بين مصالحهم ومصالح

الفرنسيين ، لا يتاح له العمل ان لم تنشطه وتساعده . على أن الانكليز لم يساعدوا طلاب الاصلاح في مصر كما أنهم لم يقاوموهم . وما كتبه اللورد في تقريره الاخير هو أول قول رسمي سمعناه منه يدلنا على ميله الى هذا الاصلاح فأحببنا ان نزيل ارتياب المرتابين فيه لأن سوء ظننا بالقوم يضرنا ولا يضرهم ومن الغباوة أن يظن أن القوي يصانع الضعيف وان مثل اللورد كروم يكتب مثل هذه الكتابة لدولته ، ويرمي فيها عن غير قوس عقيدته ، وهو يعلم أن أوربا كلها تحل آراءه محل الاعتبار ، لاسيما ما كان منها أثر التجربة والاختبار ، وقد سمعنا عنه منذ سنين أنه قال لبعض الكبراء وقد رغب اليه في عمل ينفع المسلمين ويرقيهم ان من لا يعمل لنفسه لا يعمل له أحد فاعملوا ونحن نساعدكم أو قال وحسبكم ان لا نعارضكم . فقال الراغب انه ليس عندنا رجال يقومون بالخدمة العامة فقال اللورد بل عندكم رجلان الشيخ محمد عبده ورياض باشا ساعدوهما بالمال وهما يعملان للمسلمين ما يرقيهم ويرفع شأنهم

العبرة الرابعة رأيهم في المتفرنجين

يظن هؤلاء المتفرنجون أن لهم مكانة عالية في نفوس الأوربيين لتشبههم بهم في عاداتهم وتزلفهم اليهم وافراغ أموال البلاد في أكياسهم وقد علم مما ذكرنا عن اللورد أنه لا يقيم لهم وزنا وقد علمنا مثل هذا بل ما هو شر منه عن كثيرين من كبراء الاوربيين — علمنا انهم يحتقرون هؤلاء المتفرنجين وفي ذلك من العبرة ما لا محل لشرحه في هذا المقام واللبيب من تكفيه الاشارة وأين اللبيب فيهم وقد أفسدت الخمور ألبابهم، وأضاع القمار صوابهم ،فمعسرهم في حسرة على المال الذي يمتع شهوته ،وموسرهم في حيرة لا يدري كيف يفني ثروته ،ومنتهى الفخر عندهم كلب غريب يساير في الطرقات ،ونوع جديد من المركبات ، وفتاة أوربية تخاصر في المتنزهات ، و تقبيح ،اعليه قومهم من الآداب والعادات،وصرف العمر في التفنن في اللذات ، وان أذاقت الامة ضعف الحياة وضعف الممات ،



فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذلا يسع الناس عامة ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا . ولمن يمضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

(طريقة ابراهيم الرشيدي — من اسئلة سنغافوره)

(س ٢٠) من أحد المشتركين في سنغافوره

نبعث بهذه الاسطر لحضرة فذلكة العلوم والمعارف صاحب المنار الأغرّ لازال منار الدين به مشيدا وهو

انه نجم في هذه الاطراف طائفة تزعم أنها على طريقة الشيخ ابراهيم الرشيدي ويقيمون في المساجد اذكاراً بلفظ الجلالة برفع صوت جداً ويشوشون على من هنالك من المصلين والقراء والتالين ويخلطون خلال ذلك اشعارا من كلام الصوفية لايعرفون معناها وفي يوم الجمعة في اثناء صلاتها تحصل منهم زعقات هائلة بلفظ (الله الله) ويجيب بعضهم بعضا بذلك بحيث اذا زعق أحدهم تلاه الباقون بهذه الزعقات الشديدة المزعجة لمن في المسجد وقت صلاتهم الجمعة ويحصل للمصلين تشوش منهم واذا نهوا عن ذلك أجابوا بأن الناهي لهم من فريق يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم و بأنهم انما يزعقون في حالة الغيبة مستندين الى ما في كتب الصوفية من ان المريد اذا غلب على قلبه ذكر الباطن وضاقت انفاسه منه يماخرج على ظاهره فيزعق بلفظ (الله) واذا قاموا للذكر ليلا وارتفعت أصواتهم بذلك ربما سقط بعضهم مغشيا عليه ذكراً كان أو أنثى وذلك بعد ان يشير الخليفة عليهم بخرقة في يديه و يقول لهم (أشّ) ثم يخرّ أحدهم مغشياً عليه فيفيق بعد ذلك و يقول شاهدت في غيبتي أحمد بن ادريس وشاهدت .... الى ما لا نطيل بذكره فهل هذا مما عهد في أحد القرون الثلاثة الممدوحة أو هو مما أمر به الشارع أو السلف الصالح وهل يجب على ولاة الامور المنع من مثل هذا

اذ وليّ الامر هنا لم يقدم على منعهم ظنا منه انه مطلوب شرعا واذا نشر في المنار حكم ذلك شرعا فوليّ الامر لا يتأخر عن حملهم على ما يحكم به الاستاذ فى المنار من المنع أو الاقرار فأدركونا بما فيه حياة الدين والدنيا لازلتم عمدة لنفع المسلمين والله يحفظكم لنا أفندم

(ج) في هذا السؤال مسائل (أحدها) الذكر باسماء الله تعالى مفردة كما عليه أهل الطريق فى هـذا العصر كقولهم الله الله ... حي حي ... أو بالضمير كقولهم هُو هُو ... وهذا من البدع التي حدثت بعد الصدر الأول. قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى رسالة العبودية مانصه بعد أن أورد ماورد في الحديث من أن أفضل الذكر لا اله الا الله كما رواه الترمذي وغيره أو لا اله الا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير كما رواه مالك في الموطأ:

« ومن زعم أن هذا ذكر العامة وأن ذكر الخاصة هو الاسم المفرد وذكر خاصة الخاصة المضمر فهم ضالون غالطون واحتجاج بعضهم على ذلك بقوله (٦: ٩١ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) من أبين غلط هؤلاء فان الاسم هو مذكور في الامر بجواب الاستفهام وهو قوله (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى) فالاسم مبتدأ وخبره قد دل عليه الاستفهام كما في نظائر ذلك يقال: من جاء؟ فتقول: زيد: وأما الاسم المفرد مظهراً أو مضمرا فليس بكلام تام ولا جملة مفيدة ولا يتعلق به ايمان ولا كفر ولا أمر ولا نهي ولم يذكر ذلك أحد من سلف الامة ولا شرع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يعطي القلب بنفسه معرفة مفيدة ولا حالا نافعا وإنما يعطيه تصورا مطلقا لايحكم عليه بنفي ولا اثبات فان لم يقترن به من معرفة القلب وحاله مايفيد بنفسه والا لم يكن فيه فائدة والشريعة أنما تشرع من الاذكار ما يفيد بنفسه لاما تكون الفائدة حاصلة بغيره. وقد وقع من واظب على هذا الذكر فى فنون من الالحاد وأنواع من الاتحاد، كما قد بسط في غير هذا الموضع. وما يذكر عن بعض الشيوخ من أنه قال: أخاف ان أموت بين النفي والإثبات: حال لايقتدى فيها بصاحبها فان في ذلك من الغلط مالا خفاء فيه اذ لو مات العبد فى هذه الحال لم يمت الاعلى ماقصده ونواه اذ الاعمال بالنيات وقد ثبت أن النبي صلى

الله عليه وسلم أمر بتلقين الميت (يعني المحتضر) لا اله الا الله وقال «من كان آخر كلامه لا اله الا الله دخل الجنة» ولو كان ماذكره محذورا لم يلقن الميت كلمة يخاف أن يموت في أثنائها موتا غير محمود بل كان يلقن ما اختاره من ذكر الاسم المفرد.

«والذكر بالاسم المفرد المضمر أبعد عن السنة وأدخل في البدعة وأقرب الى اضلال الشيطان فان من قال ياهو ياهو أو هو هو ونحو ذلك لم يكن الضمير عائدا الا الى مايصوره قلبه والقلب قد يهتدي وقد يضل وقد صنف صاحب الفصوص كتابا سماه (الهو) وزعم بعضهم ان قوله (٣: ٧ وما يعلم تأويله الا الله) معناه وما يعلم تأويل هذا الاسم الذي هو (الهو) لا الله وقيل هذا وان كان مما اتفق المسلمون بل العقلاء على أنه من أبين الباطل فقد يظن ذلك من يظنه من هؤلاء (صوابا) حتى قلت مرة لبعض من قال بشيء من ذلك لو كان هذا كما قلته لكتبت «وما يعلم تأويل هو» منفصلة

«ثم كثيرا ما يذكر بعض الشيوخ أنه يحتج على قول القائل (الله) بقوله سبحانه (قل الله ثم ذرهم) ويظن أن الله أمر نبيه بأن يقول الاسم المفرد وهذا غلط باتفاق أهل العلم فان قوله (قل الله) معناه: الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى: وهذا جواب لقوله (٦: ٩١ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم، قل الله) أي الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى رد بذلك قول من قال (ما أنزل الله على بشر من شيء)(*) فقال من انزل الكتاب الذي جاء به موسى ثم قال قل الله انزله ثم ذر هؤلاء المكذبين في خوضهم يلعبون

«ومايبين ما تقدم ماذكره سيبويه وغيره من أئمة النحو أن العرب يحكون بالقول ما كان كلاما لا يحكون به ما كان قولا فالقول لا يحكى به الا كلام تام جملة اسمية أو فعلية ولهذا يكسرون «إن» اذا جاءت بعد القول فالقول لا يحكى به اسم. والله تعالى لم يأمر أحدا بذكر اسم مفرد ولا شرع للمسلمين اسما مفردا مجردا والاسم المفرد المجرد لا يفيد الايمان باتفاق أهل الاسلام ولا يؤمر

(*) أول الآية «وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء» الخ

به في شيء من العبادات ولا في شيء من المخاطبات . ونظير من اقتصر على الاسم المفرد ما يذكر أن بعض الاعراب سمع مؤذناً يقول: أشهد أن محمداً رسولَ الله: بالنصب فقال ماذا يقول هذا ؟ هذا الاسم فأين الخبر عنه الذي به يتم الكلام ؟

« وما في القرآن من قوله (٧٣: ٨ واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا) وقوله (٨٧: ١ سبح اسم ربك الأعلى) وقوله (٨٧: ١٤ قد أفلح من تزكى ١٥ وذكر اسم ربه فصلى) وقوله (٥٦: ٩٦ فسبح باسم ربك العظيم) ونحو ذلك لا يقتضي ذكره مفردا بل في السنن أنه لما نزل قوله فسبح باسم ربك العظيم قال « اجعلوها في ركوعكم » ولما نزل قوله (سبح اسم ربك الأعلى) قال « اجعلوها في سجودكم » (١) فشرع لهم ان يقولوا في الركوع سبحان ربي العظيم وفي السجود سبحان ربي الاعلى . وفي الصحيح (٢) أنه كان يقول في ركوعه سبحان ربي العظيم وفي سجوده سبحان ربي الاعلى وهذا معنى اجعلوها في ركوعكم وسجودكم باتفاق المسلمين » — الخ ما أطال به رحمه الله تعالى .

(المسألة الثانية) التشويش على المصلين محظور عند جميع العلماء سواء كان بذكر أو تلاوة قرآن أو قراءة علم أو بغير ذلك فان المساجد انما بنيت للصلاة فهي المقصودة بالذات فيجب منع التشويش على المصلين وان كان بمشروع فكيف اذا كان بأمر غير مشروع مما يطلب منعه لذاته وان لم يشوش على مصل . ولا أراني محتاجا في هذه المسألة الى نقل لانه لا ينازع فيها احد ومن اراد النقول فليرجع الى الجزء الاول من المجلد السادس ومنه حديث أبي سعيد الخدري عند أبي داود وأقوال الفقهاء في تقريظ كتاب اصابة السهام (٦: ٣٤)

(المسألة الثالثة المجاذيب) اعلم أن ما يسميه الصوفية بالجذب هو من الاحوال التي لا يعرف منها أهل الطريق في هذا العصر الا انها ضرب من البله أو التباله والخروج عن الآداب الشرعية والعرفية . الجذب في الحقيقة حال تطرأ على الانسان

---

(١) الحديث رواه أحمد وابو داود وابن ماجه والحاكم في المستدرك وابن حبان في صحيحه عن عقبة بن عامر (٢) قوله في الصحيح يعني صحيح مسلم ورواه ايضا احمد واصحاب السنن وصححه الترمذي من حديث حذيفة

الله عليه وسلم أمر بتلقين الميت (يعني المحتضر) لا اله الا الله وقال «من كان آخر كلامه لا اله الا الله دخل الجنة» ولو كان ماذكره محذورا لم يلقن الميت كلمة يخاف أن يموت في أثنائها موتا غير محمود بل كان يلقن ما اختاره من ذكر الاسم المفرد.

«والذكر بالاسم المفرد المضمر أبعد عن السنة وأدخل في البدعة وأقرب الى اضلال الشيطان فان من قال ياهو ياهو أوهوهو ونحو ذلك لم يكن الضمير عائدا الا الى مايصوره قلبه والقلب قد يهتدي وقد يضل وقد صنف صاحب الفصوص كتابا سماه (الهو) وزعم بعضهم ان قوله (٣:٧ وما يعلم تأويله الا الله) معناه وما يعلم تأويل هذا الاسم الذي هو (الهو) لا الله وقيل هذا وان كان مما اتفق المسلمون بل العقلاء على أنه من أبين الباطل فقد يظن ذلك من يظنه من هؤلاء (صوابا) حتى قلت مرة لبعض من قال بشيء من ذلك لو كان هذا كما قلته لكتبت «وما يعلم تأويل هو» منفصلة

«ثم كثيرا ما يذكر بعض الشيوخ أنه يحتج على قول القائل (الله) بقوله سبحانه (قل الله ثم ذرهم) ويظن أن الله أمر نبيه بأن يقول الاسم المفرد وهذا غلط باتفاق أهل العلم فان قوله (قل الله) معناه: الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى: وهذا جواب لقوله (٦:٩١ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم مالم تعلموا انتم ولا آباؤكم، قل الله) أي الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى رد بذلك قول من قال (ما أنزل الله على بشر من شيء) (*) فقال من انزل الكتاب الذي جاء به موسى ثم قال قل الله أنزله ثم ذر هؤلاء المكذبين في خوضهم يلعبون

«ومايبين ماتقدم ماذكره سيبويه وغيره من أئمة النحو أن العرب يحكون بالقول ما كان كلاما لا يحكون به ماكان قولا فالقول لا يحكى به الا كلام تام جملة اسمية أو فعلية ولهذا يكسرون «إن» اذا جاءت بعد القول فالقول لا يحكى به اسم، والله تعالى لم يأمر أحدا بذكر اسم مفرد ولا شرع للمسلمين اسما مفردا مجردا والاسم المفرد المجرد لا يفيد الايمان باتفاق أهل الاسلام ولا يؤمر

(*) أول الآية «وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء» الخ

آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم وفي أحوالهم الظاهرة من السماع والرقص والطهارة والصلاة والجلوس على السجادات مع اطراق الرأس وادخاله في الجيب كالمتفكر وفي تنفس الصعداء وفي خفض الصوت في الحديث الى غير ذلك من الشمائل والهيآت. فلما تكلفوا هذه الامور وتشبهوا بهم فيها ظنوا أنهم أيضاً صوفية ولم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية وكل ذلك من أوائل منازل التصوف ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم في الصوفية كيف ولم يحوموا قط حولها ولم يسوموا أنفسهم شيئاً منها بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويتنافسون في الرغيف والفلس والحبة ويتحاسدون على النقير والقطمير ويمزق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه في شيء من غرضه وهؤلاء غرورهم ظاهر » ثم ضرب لهم مثل العجوز تلبس لباس الشجعان وتبرز الى الميدان ثم ذكر فرقة المتشبهين بهم في الزي وقال بعد ذلك:

(وفرقة أخرى) ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والاحوال والملازمة في عين الشهود والوصول الى القرب ولا يعرف هذه الامور الا بالأسامي والألفاظ الا أنه تلقف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يرددها ويظن ان ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين فهو ينظر الى الفقهاء والمفسرين والمحدثين بعين الازدراء فضلا عن العوام حتى أن الفلاح ليترك فلاحته والحائك يترك حياكته ويلازمهم أياما معدودة ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة فيرددها كأنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن سر الاسرار ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء فيقول في العباد انهم أجراء متعبون ، ويقول في العلماء انهم بالحديث عن الله محجوبون ، ويدعي لنفسه انه الواصل الى الحق وانه من المقربين ، وهو عند الله من الفجار المنافقين ، وعند أرباب القلوب من الحمق الجاهلين ، ولم يحكم قط علما ولم يهذب خلقا ولم يرتب عملا ولم يراقب قلبا سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان وحفظه :

(ثم قال بعد ذكر الفرقة التي وقعت في الاباحة)

(وفرقة أخرى) جاوزت حد هؤلاء واجتنبت الاعمال وطلبت الحلال

واشتغلت بتفقد القلب وصار أحدهم يدعي المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها (فمنهم) من يدعي الوجد والحب لله تعالى ويزعم أنه واله بالله ولعله قد تخيل في الله خيالات هي بدعة أو كفر فيدعي حب الله قبل معرفته ثم انه لايخلو عن مقارفة مايكره الله عز وجل وعن إيثار هوى نفسه على أمر الله وعن ترك بعض الامور حياء من الخلق ولو خلا لماتركها حياء من الله تعالى وليس يدري ان كل ذلك يناقض الحب : الخ ماذكره في ذلك

أقول اذا تدبر السائل هذا القليل من كثير ما كتب أئمة هذا الشأن في ذلك علم أن المسؤول عنهم لم يبلغوا في التصوف بعض مدى هؤلاء الذين أثبت الامام الغزالي غرورهم · وليعلم ان الوجد وما يتبعه من مثل الزعقات ببعض الناس انما يكون بعد الحب والحب لايكون الا بعد المعرفة والمعرفة بالله لاتكون الا بالعلم بما جاء في كتابه وما مضت به سنة نبيه من الاعمال والعمل القلبي والبدني هذه هي طريقة الصوفية ومن علامة الصادق فيها ان لا يدعيها ولا يدافع عن نفسه اذا أنكر عليه لاسيما اذا كان الانكار انتصارا للدين وحماية للشرع فكل مدّع كذاب وقد دخلنا في هذه الامور وجربناها وكنا نذكر الذكر الباطن مع النقشبندية ومنهم من كان يزعق وكنت أقلدهم ولكنني علمت ان كل ذلك من وسائل الشهرة الباطلة ولو شاء هؤلاء ان لا يزعقوا لمازعقوا وكم من تائب منهم قد اعترف بما كان اقترف والله الموفق

(المسألة الخامسة الغيبة ومشاهدة الارواح) قد شرحنا حقيقة مسألة رؤية الارواح التي عدوها من أعظم الكرامات في المجلد السادس فلا نعيدها وانما نقول ان المدعين كاذبون مراؤون باغون للشهرة وان دعاويهم هذه ان صحت لاتكون من الدين في شيء · اذ لم يرد بها كتاب ولا سنة ومن أكثر من تذكر ميت وتخيله يوشك أن يتمثل له وليس ذلك بأمر كبير · ومن علامة كذب المدعي في دعواه أن يكون في حضوره وغيبته وصحوه وسكره تابعا لإشارة من الخليفة يبديها أو كلمة يقولها

وجملة القول انماحكيتم عن هذه الفرقة مما تصان عنه المساجد فان صدقوا في دعوى التصوف فعليهم ان يخضعوا لآداب الشرع ويصدقوا في الاتباع من

غير انتصار لأنفسهم وان أبوا كان على المستطيع ان يمنعهم من كل فعل في المسجد يشوش على المصلين ويشغلهم عن الخشوع في الصلاة ولو استعان على ذلك بقوة الحكومة والله أعلم وأحكم

غيبة العلماء . والعالم الذي لا يعمل بعلمه

(س ٢١) مستفيد من (سنغافوره)

مايقول المنار المنير في رجل أطرى عالما بسعة اطلاعه وجودة مدركه ونحو ذلك فقال آخر حسدا لذلك العالم وجهلا منه بحقيقة العلم دعني من علم أولئك الناس الذين ظهروا اليوم وفسق وكذب . . . — الى ان استشهد ببيت ابن رسلان :

وعالم بعلمه لم يعملن معذب من قبل عابد الوثن

فقال له المطري مهلا فانك تعلم ان الغيبة حرام فاليت يصدق عليك فانك لم تعمل بعلمك فكيف الحكم في ذلك المثاب الخ

(ج) تحريم الغيبة معلوم من الدين بالضرورة للنهي عنها في القرآن وتبشيع حال أهلها وغيبة العلماء أشد الغيبة ضررا لأنها تفضي الى تنفير الجاهلين عن الاستفادة منهم وذلك صد عن سبيل الله ثم ان في قول ذلك الطاعن في العلماء جراءة أخرى وهي انه يحكم في أمر من علم الغيب ببيت من الشعر وذلك من القول على الله تعالى بغير علم وهو محرم بنص القرآن بل ذكر تحريمه مقرونا بتحريم الشرك بالله . وقد قيل ان لمعنى البيت أصلا في الحديث لكن الطاعن لم يعرفه اذ لو عرفه لاحتج به لا بقول من لا حجة في كلامه . روى مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعا « ان أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمته فعرفها فقال فما عملت فيها قال قاتلت فيك حتى استشهدت : قال كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جري . فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار — ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن ، قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال انك عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ . فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار — ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله

فأتي به فعرفه نعمه فعرفها فقال فما عملت فيها قال ما تركت من سبيل تحب ان ينفق فيها الا أنفقت فيها ذلك. قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار» فمن هـذا الحديث أخذوا ان هؤلاء الثلاثة أول من يحاسب ويعـذب ولكن ما يدرينا ان الاولية بالنسبة الى المسلمين لا الى المشركين وعبـاد الاوثان أو أن افعل ليس على بابه، ثم ان الحـديث فى العـالم المرائي لافي تارك العمل بعلمه فهذا الحكم غير صواب وان اشتهر وتلقاه المقلدون بالقبول . واذا جاز ان يغتاب العالم الذي يتهم بالرياء ويخاض في عرضه لاجل هذا الحديث جاز أيضا ان يغتاب الشهيد والمحسن المنفق في سبيل الله وهؤلاء خيار الناس وخيرهم العالم المعلم فما معنى تحريم الغيبة اذا حازت غيبتهم ? الرياء أمر خفي لايجوز أن نحكم به على عالم ولاجاهل نعم ان مؤاخذة العالم بتحريم الشيء اذا هو فعله أشد من مؤاخذة من يفعل الذنب جاهلا بكونه ذنبا من حيث الجراءة على الله ولكن المذنب الجاهل يؤاخذ على الذنب وعلى الجهل [illegible] الجاهل ليس معذورا الا [illegible] في دقائق الشبهات وخفيات الاحكام . ومن الاحاديث التي [illegible] كثير من العامة فتجرئهم على إهانة العلماء حديث « ويل للجاهل مرة وويل للعالم ألف مرة» ولا أعرف له أصلا وماأراه الا من وضع المتأخرين وقد روى سعيد بن منصور عن جبلة مرسلا « ويل لمن لايعلم ولو شاء لعلم واحد من الويل وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع من الويل » وهو على ارساله لايصح وعبارته تدل على أنه ليس من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم . وأخرج أبو نعيم في الحلية من حديث حذيفة « ويل لمن لايعلم ولو شاء الله لعلمه وويل لمن علم ثم لايعمل » وهو ضعيف وان كان معناه صحيحا

﴿ اختيار مسجد للصلاة أو الصلاة بأجرة ﴾

(س٣٣) ح ٠ ع بسنغافوره

سيدي : في (جوهر) الاسلامية مسجد يصلون فيـه الجمعة فقط ويكون في سائر الايام مهجورا لايصلي فيه الا خدمته . وفي شهر رمضان من السنة الماضية طلب أحد وزراء تلك البلاد من أهل البلد ان يصلوا فيه صلاة العشاء والتراويح وجعل

لكل من واظب على ذلك مدة الشهر كله ستة ريالات وللإمام ثلاثين ريالا فأجاب طلبه جمٌّ غفير من مدعي العلم وأنكر هذه الصلاة واحد قال انها غير صحيحة ولم يجوز أخذ الدراهم بل قال ان هذا هو الشرك في العبادة . والحقير من جملة الذين حضروا هذه الصلاة ولم آخذ الأجرة وقد جعلني المنكر في جملة من أشركوا فهل قوله صحيح أم لا فاحكم ياسيدي فأنت الحكم الذي ترضى حكومته والسلام .

(ج) ان من صلى لأجل أخذ الجعل بحيث لو لم يكن هناك جعل لما صلى بالمرة فلاشك أن صلاته غير صحيحة وأخذه الجعل عليها غير جائز ومن سمى ذلك شركا في العبادة فقد أعطى هذه الصلاة أكثر من حقها إذلاشيء فيها لله في الحقيقة وانما الشرك أن يقصد مع الله غيره فمن قصد بالصلاة الأمرين معا — الثواب والمال — فهو المشرك في هذه العبادة ومثله من قصد مرضاة الوزير والتقرب اليه . ومن لم يقصد المال بالمرة ولم يأخذه ولا رضاء الوزير أو [illegible] وانما صلى في ذلك المسجد بعد نداء الوزير بالجعل لأن الجماعة قامت في المسجد المختار قصده اليه كقصده الى غيره فلا يعد مشركا ولا مرائيا ولا يكون آثما

وقد اختلف العلماء فيمن يقصد بعمله الثواب والرياء معا أيثاب على قصد الثواب بقدره ويعاقب على قصد الرياء بقدره أم يستحق العقاب دون الثواب ؟ قال الغزالي بالأول محتجا بقوله تعالى (٩٩: ٧ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ٨ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) وقال العز بن عبد السلام بالثاني محتجا بالاحاديث الصريحة في ذلك كحديث مسلم وابن ماجه « قال الله تعالى انا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه — اذا كان يوم القيامة أتي بصحف مختمة فتنصب بين يدي الله عزوجل فيقول الملائكة اقبلوا هذا والقوا هذا فتقول الملائكة وعزتك ما رأينا الا خيرا فيقول نعم لكن كان لغيري ولا أقبل الا ماابتغي به وجهي » أقول وما ابتغي به غير وجهه تعالى قسمان ما ابتغي به المال وما ابتغي به الجاه كما يستفاد من قوله تعالى (٧٦: ٩ انما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا)

وفي مسألة المسجد المسئول عنه دقيقة وهي أن الجزاء فيها على كون الصلاة فيه لا على الصلاة نفسها فمن كان يصلي لوجه الله لا يريد جزاء ولا شكورا على صلاته ولولم يصل في ذلك المسجد اصلى في غيره قطعا ولكنه اختاره لاجل الجزاء الذي ذكره الوزير كانت صلاته صحيحة خالصة لله وينحصر السؤال في قصده الى المسجد وهو عبادة أخرى وقد علم حكم ذلك والله أعلم

(الذريب الفاسق واذهاب الرجس عن أهل البيت)

(س٢٤) الشيخ عبد الله الحضرمي في سنغافوره

ملخص السؤال أن رجلا فاسقا يدعي انه من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذكر من فسقه ما يتنزه المنار عن نشره وقال اذا سلمنا بدعواه فما معنى قوله عز وجل (٣٣:٣٣ انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)

(ج) اعلم أن بعض الناس قد تكلموا في هذه الآية بالرأي فزعموا أن المراد بآل البيت جميع ذرية فاطمة عليها السلام وإن كانوا فساقا [illegible] إرادة الله تعالى هي مشيئته المطلقة التي بها الخلق والتكوين ومن [illegible] بعصمة الشرفاء أو حفظهم من الذنوب فقال بعضهم أن معاصيهم صورية لا حقيقية فيجب تأويلها كالمعاصي التي نسبت الى بعض الانبياء وبهذا قال بعض الصوفية. وبحث ابن حجر الفقيه في ذلك بأنه مخالف للمشاهدة واختار هو حفظهم من الكفر دون المعاصي وقال انه يكاد يقطع بذلك. وقال بعضهم انها خاصة بعلي وفاطمة وولديهما ولهم في هذا روايات وبعضهم انها تشمل معهم بقية الائمة الاثني عشر فهم المعصومون

والحق الذي لا محيد عنه الا الى الهوى أن المراد بالبيت في الآية بيت النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يسكنه وهو جنس والمراد باهله هو ونساؤه وذكر ضمير الجمع المذكر تغليبا للاشرف ايذانا بأن العناية به ثم بمن تبعاله أو رعاية للفظ الاهل والعرب تستعمله ومنه (٧:٢٧ اذ قال موسى لاهله اني آنست نارا سآتيكم منها بقبس)وقوله(٣٨:٢٩ قال لأهله امكثوا) ونحو هذه الآية قوله تعالى (١١:٧٣ قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت)والخطاب لامرأة ابراهيم عليه السلام هذا ما يقتضيه السياق ويتبرأ من كل ما يخالفه فان العبارة جاءت في

آية معطوفة على عدة آيات فيهن بالنص الذي لا يحتمل التأويل . والمراد بالإرادة فيها ما يقصد ويراد من شرع تلك الاحكام الخاصة بهن لا إرادة الخلق والتكوين ابتداء فقوله (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس) ألخ هو كقوله عزوجل في آخر آية الوضوء والغسل والتيمم من سورة المائدة (٥:٦ ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته لعلكم تشكرون) وقوله بعد ذكر أحكام الصيام وما فيها من الرخصة (٢:١٨٥ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) كل ذلك بيان لحكمته تعالى في تلك الاحكام ، وما فيها من الفائدة للأنام إذا هم عملوا بها لا يفهم منها ارادة الخلق والتكوين ابتداء . وقد سألني عن هذه الآية الأخيرة الشيخ التميمي مفتي الخليل عند زيارتي له ببلده في عاشر المحرم سنة أحدى عشرة وثلاث مئة وألف قال رحمه الله ان الله تعالى نفى ارادة العسر بنا وأثبت ارادة اليسر وما يريده الله تعالى لابد من وقوعه وما لا يريده يستحيل ان يقع وانا نرى العسر قد يقع كثيرا فيذهب باليسر فأجبته في البداهة على ما تقدم آنفا ولم أر رأيته لأحد وانما هو بديهي في نفسه

من فهم هذا ولا تحمل الآية سواه الا بتحريفها عن موضعها علم ان ما ورد من الروايات في تخصيصها بفاطمة وعلي وولديهما ما يتبرأ منه سياق الآية اذ يصير معنى الآيات يانساء النبي لا تفعلن كذا ومن يفعل منكن كذا فجزاؤه مضاعف ضعفين يانساء النبي أفعلن كذا وكذا ان الله لا يريد بهذه الأوامر والنواهي الا إذهاب الرجس عن علي وزوجه وولديه وتطهيرهم من كل ما يفضي الى اللائمة تطهيرا كاملا . وان رواية تفضي الى هذا مما يقطع ببطلانها وان صحح بعض المحدثين سندها بل أقول انه لا معنى لإدخالهم في عموم الآية فضلا عن تخصيصها بهم ولا مزية في ذلك لهم وهم غير مخاطبين بتلك الاحكام التي شرعت لاجل اذهاب الرجس بالعمل بها وانما كان يكون في ذلك مزية لو كانت الإرادة للتكوين وكان الاخبار بها ابتدائيا غير معلق بشيء .

أقول هذا وانا علوي فاطمي حسيني الاب حسني الأم عالم بالأخبار والآثار الواردة في ذلك وأفضل فاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام على أزواجه أمهات

المؤمنين بأنها بضعة منه لكن كتاب الله فوق كل شيء وحكمه فوق كل حكم وهو قد خص أزواج نبيه بأحكام فهن بها ممتازات على بناته وعلى جميع النساء أو الناس وان فضلهن بعض الناس بمزية أو مزايا أخرى كما يفضل أبو بكر وعمر عائشة وحفصة. وإنني لأعجب أشد العجب كيف عظم افتتان الناس بالرواية في الصدر الاول وان كانت مخالفة لصريح القرآن حتى قال من قال في هذه الآية إنها خاصة بأهل الكساء أو عامة لبني هاشم وبني المطلب لحديث الترمذي والحاكم في الاول وحديث الحكيم الترمذي والطبراني وابن مردويه وأبي نعيم في الثاني ولا يصح في ذلك شيء خلا فالترمذي والحاكم ولله در عكرمة اذ كان يقول من شاء باهلته أنها نزلت في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وهو ما كان يرويه عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما كما رواه ابن أبي حاتم وابن عساكر. وروى ابن جرير ان عكرمة كان ينادي في السوق ان قوله تعالى «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت» نزل في نساء النبي صلى الله عليه وسلم. ولا نحتاج الى شيء من الروايات في فهم الآية فانها في سياقها لاتحتمل غير ما قلنا وهو ظاهر لكل عارف بعربية صحيحة. وقد علمت ان الآية لاتدل على عصمة أهل البيت وانما تدل ان الله تعالى شرع لهن تلك الاحكام التي منها أن جزاءهن على الفاحشة وعلى الطاعة يضاعف ضعفين لأجل اذهاب الرجس عنهن وتطهيرهن تطهيراً اذا هن امتثلن وأطعن الله ورسوله ولا معنى لوعيد المعصوم من الذنب بمضاعفة عذابه عليه. فاذا فرضنا أن ذرية فاطمة داخلة في أهل البيت هنا لم يكن معنى ذلك ان يستحيل عليهم الفسق فاذاً هم كغيرهم من البشر فيما يجوز عليهم ويمتنع وهو ما تؤيده المشاهدة التي لامكابرة فيها فان لم نقل بهذا كنا بين أمرين تكذيب الحس أو قذف الكثيرين من الشرفاء بأنهم أولاد زنا والاول جنون والثاني حرام

﴿ العمل بالبيع والشراء وغيرهما بالعمولة العرفية ﴾

(س٢٥) السيد حسن بن علوي شهاب من علماء العرب بسنغافوره:

ما قول المنار فيما هو الجاري الآن بين المسلمين — يبعث أحدهم الى آخر بعروض تجارة فيأمره ببيعها بقيمة الوقت هناك أو بدراهم ليشتري له بها عروض

تجارة . وكذلك الوصي يبيع مال موصيه والوكيل يقبض لموكله غلة عقارة ويجري كل منهم لنفسه معلوما في مقابل عمله خمسا في المئة أو أقل أو أكثر فهل ما يأخذونه جائز لهم شرعا ؟ ان قلتم لا فواضح وان قلتم نعم فما وجه ذلك المأخوذ في الشرع لانا نرى أنهم انما يعملون مجانا كما هو مقرر في محله . أفيدونا بارك الله فيكم ولكم آمين

(ج) قال الله تعالى في أول سورة المائدة (٥ : ١ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) فكل ما يتعاقد عليه المسلمون يجب عليهم الوفاء به الا اذا كان على معصية كالاستئجار على الزنا مثلا فاذا اتفق تاجران على ان يبيع أحدهما أو كل منهما للآخر ما يرسله اليه من العروض ويشتري له بثمنه أو بمال آخر عروضا معينة بالجنس أو النوع أو غير ذلك من أنواع التعيين كما هو المتعارف على أن يأخذ على المبيع والمشترى أجرا يقدر بنسبة قيمته كخمسة في المئة كان هذا الاتفاق عقدا صحيحا يجب الوفاء به لانه لم يحل حراما ولم يحرم حلالا

فان قيل إن هذه الأجرة مجهولة والشرط في الأجرة أن تكون معلومة وغير متوقفة على العمل كما قال كثير من الفقهاء (نقول) بل هي معلومة معينة فان البائع والمشتري لغيره يعرف عند الاتفاق أجر عمله في الجملة وعند تعيين الثمن قبل عقد البيع أو الشراء ما يستحقه بالتفصيل وهذه الأجرة لا تتوقف على العمل ككون أجرة الطحن من الطحين . على أننا نقول إن ما يشترطه الفقهاء في العقود مما لم يرد به نص عن الشارع وانما يعلل بالمصلحة يمكن ان تختلف فيه المصلحة باختلاف الزمان والمكان فعلل الفقهاء ليست دينا يتعبد باتباعه سواء قامت به المصلحة أو ترتبت عليه مفسدة ولا شك ان التجارة قد دخلت في طور يتعسر معه النجاح مع التزام جميع أقوال فقهاء أي مذهب من المذاهب . واذا تمسكنا بأصول الاباحة والبراءة والمحافظة على ما أحله الله وحرمه ولم نزد في عقودنا شروطا ليست في كتاب الله تعالى فانه يمكننا ان نسابق جميع الامم في الاعمال المالية وتنمية الثروة التي عليها مدار قوة الامة وعزة الملة في هذا العصر

فان قيل ورد في حديث أبي سعيد عند الدار قطني والبيهقي « نهى عن عسب

الفحل وعن قفيز الطحان » وفسروا قفيز الطحان بطحن الحب بجزء منه مطحونا واستنبطوا من ذلك أنه لايجوز ان تكون الاجرة بعض المعمول بعد العمل كما قال الأئمة الثلاثة دون أحمد، وفي حديثه عند أحمد وغيره « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن استئجار الأجير حتى يبين له أجره » ومنه اخذ الشافعي وأبو حنيفة وجوب كون الاجرة معلومة خلافا لمالك وأحمد فانهما حكما العرف في ذلك فما تقول في الشروط المأخوذة من هذين الحديثين

والجواب ان أمثال هذه الروايات ينظر في سندها ثم في معناها وعلة الحكم فيها . فاما حديث أبي سعيد الاول ففي اسناده هشام أبو كليب قال ابن القطان لايعرف وزاد الذهبي ان حديثه منكر ووثقه مغلطاي وابن حبان والجرح مقدم على التعديل . ثم إن ما فسروا به قفيز الطحان غير متفق عليه بل قال بعضهم انه قفيز كان يؤخذ زائدا على الاجرة وهذا هو المتبادر وهو المعهود في بلادنا فنهي عنه لانه من الباطل الذي لا [illegible] قبيل ما يسمى الآن بالبخشيش . واما حديثه الآخر فرجال [illegible] رجال الصحيح الا ان ابراهيم النخعي روايته عن أبي سعيد لم يسمع من أبي سعيد كما قال في مجمع الزوائد وذكره أبو داود في المراسيل والنسائي غير مرفوع وفي بعض ألفاظه « من استأجر » فهو على الخلاف في الاحتجاج بمثله لا ينافي ان يكون بيان الاجرة أو تسميتها بكونها جزءا من كذا جزءا ما يبيعه أو يشتريه أو يحصله فانه بذلك يكون على بصيرة لا يتطرق اليها الغبن والغش . ولا نعرف حديثا غير هذين الحديثين يمكن ان يستدل به على تحريم أخذ كذا في المئة مما يباع أو يشترى أو يحصل أجرة أو عمولة وهما لا يدلان على ذلك . والوصي حكمه فيما عوقد عليه

نعم اذا جرى العرف بين التجار أو غيرهم بأن عمل كذا لا يؤخذ عليه شيء وأراد من عمله أن يأخذ عليه أجرا أو عمولة من غير عقد يستحق به ذلك ولا عرف يجيزه له فانه لا يجوز له أخذه واذا أخذه بدون علم صاحب المال كان سارقا . ولا أدري أهذا ما يريد السائل بقوله « ولانا نرى أنهم إنما يعملون مجانا » أم يريد أنه يجب أن تكون هذه الاعمال مجانا وقد علمت ما نعتقد في الامرين والله أعلم وأحكم

(تقبيل ايدي الشرفاء وغيرهم)

(س٣٧) مستفيد من سنغافوره

مايقول المنار المنيرفي تقبيل اليد فاني أرى سادات اليمن وحضرموت المنتسبين الى النبي صلى الله عليه وسلم ينكرون على من لم يقبل أيديهم ويزعمون أنهم مستحقون لتقبيل اليد فهل لهذا أصل في السنة أفيدونا

(ج) ان زعموا ان هذا حق شرعي لهم ثبت في السنة فمن ترك تقبيل أيديهم يكون مخالفا للسنة ومرتكبا محرما أومكروها فقد زادوا في شريعة الله ماليس منها وهذا من أعظم الكبائر وان كانوا يريدون انه قد استحسن في الآداب العادية ان تقبل أيديهم فصار ترك بعض الناس لذلك في بلاد جرت عادتها به لايخلو من إشعار بعدم الاحترام فلا مرسهل. والسنة في التحية السلام والمصافحة أقول هذا وانا أعلم ما قال النووي في ذلك والسنة الصحيحة تعرف بعمل الناس في الصدر الاول وبنقل ذلك [illegible] ولا يكفي فيها [illegible] الآحاد اذ لايمكن ان يشرع شيء لايعمل به أهل الصدر الاول من الصحابة والتابعين ولا يمكن ان يعمل المسلمون به ويبقى مجهولا لايعرفه الا الآحاد من المتأخرين. وقد قال صاحب المدخل عند ذكر تقبيل اليد بدل المصافحة ما نصه «وقد وقع انكار العلماء لذلك فان كان المقبل يده عالما أوصالحا أوهما معا فأنكره مالك في المشهور عنه وأجازه غيره وأما تقبيل يد غير هذين فلا يعرف أحد يقول بجوازه لاسيما اذا انضاف الى ذلك ان يكون المقبل يده ظالما أو بدعيا أومن يريد تقبيل يده ويختاره فهو الداء العضال الواقع بالفاعل والمفعول به ومن أعجبه ذلك منهما لما ورد في ذلك من الوعيد الشديد نعوذ بالله من المخالفة وترك الامتثال كل هذا سببه ترك السنة أوالتهاون بشيء منها»

فأنت ترى انه قد شدد في المسألة جدا لا بعدها بدعة دينية وله الحق في التشديد في ذلك اذا فعل التقبيل على انه مطلوب شرعا أو ترتب عليه مفسدة كإعانة المبتدعين والظالمين على بدعتهم وظلمهم. وأما ما يفعل بمقتضى العادة لا باسم الدين فهو مباح الا اذا ترتبت عليه مفسدة ومنها أن يعتقد انه من الدين كما يزعم سادة حضرموت

باب التربية والتعليم

﴿ اصلاح التعليم والمدارس الاسلامية في روسيا ﴾

كتبنا في الجزء الماضي شيئا في هذا الموضوع وكان موسى أفندي عبد الله أحد مجاوري الروس في الأزهر ترجم لنا مقالة من جريدة (وقت) الروسية التي تصدر في أورنبورغ كتبت بقلم رجل من أعقل المسلمين وأفضلهم في روسيا فضاق ذلك الجزء عن نشرها فرأينا نشرها هنا لما فيها من الفائدة وهي

﴿ المدارس وطلبة العلوم ﴾

ظهرت بيننا في هذه الأيام مسئلة اصلاح المدارس . مسئلة خاضت فيها الجرائد وتحدث بها الناس في كل مجتمع وكتب فيها ما كتب من المقالات والرسائل وكثر فيها القيل والقال، وطال أمد النزاع والجدال، الى ان سئم البعض من المقال، بيد انا [illegible] في الكلام محصورة [illegible] الاخطوة واحدة والمقصد شاسع لا [illegible] قطع حلقة [illegible]

المسئلة مهمة وجديرة بأن نعنى بها لان حياة الامم و بقاءها انما يكونان بالمدارس التي هي روح الامم ومدار سعادتها وارتقائها في العلوم والمعارف . ولا يحصل الارتقاء في العلوم الا بالتدريج . وكم من أمة وضعت أساساً للعلم والمدنية ثم انقرضت وورثتها أمة اخرى و بنت على انقاض ما تركت الاولى وأكملت نواقصها ثم ودعت الدنيا خلفتها ثالثة ونظرت في ما تركته من الآثار وزادت عليها وظفرت بما لم يخطر ببال الثانية وهكذا الى ان بلغت العلوم والحضارة ما نراه اليوم من الرقيّ والكمال .

ووظيفة كل أمة في كل عصر هي ان تكمل ما ورثته من الآباء وتتركه للأبناء واذا أهملت أمة هذه الوظيفة فقد جنت جناية لا تقتصر على اخلافها بل على النوع البشري بأسره.

واذا أجلنا الطرف في مدارسنا نرى الفوضى سائدة في أركانها : لا نظام ،

ولا ترتيب ولا نظارة ولا محاسبة كأمتعة بيت طرحت الى الشارع وقت الحريق؛ ومن أراد ان يكتب شيئا فيما يتعلق بها يحار في اختيار نقطة يبتدئ منها · فليس اصلاح هذه المدارس وتنظيم دروسها أمرا هينا بل هو أمر في غاية الصعوبة ولكن الامة اذا تصدت لهذا الامر بجد واخلاص ذلله مهما كان صعبا اذ لا يوجد في الدنيا شيء أشد قوة من أمة متحدة افرادها وملتئمة اعضاؤها · وما من غاية قاصية الا وادركتها الامة المتحدة وما من مسلك وعر الا وعبرته الامة المتحدة

والمسائل التي تتعلق بمدارسنا كثيرة لا تحصى ومضارها واسع جدا لا نهاية له · فلا خير في التحير في اختيار نقطة الكلام فأقول:

هل تفتقر مدارسنا الى الاصلاح؟

ان مسئلة اصلاح المدارس مسئلة جديدة بيننا · اذا رجعنا البصر الى ما وراءنا قبل عشرين سنة لم نعثر على أفكار مكتوبة تتعلق بالمدارس الا قليلا واذ كان هذا القليل لم يطبع ولم ينشر بين الافراد لم يكن له أثر بالمرة · ولكن الفرق عظيم بين ذلك الزمان وبين اليوم · فما لا نكاد نجد اليوم من لا يبحث عن أحوال المدارس وطلبة العلوم · وان كان بعضنا ينكر اصلاح المدارس ويحرم تنظيم الدروس ويدعي ان وراء اصلاح المدارس ضررا جسيما يرجع الى الامة بالخسار فهؤلاء المنكرون لا يزالون يتباحثون مع غيرهم في شأن المدارس والطلبة · والبحث عن شيء ولو بانكار الحقيقة خير من إهمال البحث لان الناس لا يهتدون الى الحق الا بعد نزاع وجدال وبحث وتنقيب والبحث يجلو الحقيقة ويطلع الكثيرين على مواضع خطأهم ويتقدم من التيه في غمرات الضلال ·

انا أصلحنا بيوتنا التي نسكنها والعربات التي نركبها وحوانيتنا التي نتحرف فيها ومزارعنا التي نحرثها ، والاحذية التي نحتذيها ، والاردية والفراء التي نلبسها بل وأوراقنا التي تطبع عليها كتبنا وقرآننا ، وحروف مطابعنا وغيرها أفلا تكون ديار التربية والتعليم والمدارس والمكاتب التي يتربى فيها رجال المستقبل وقادة الامة مفتقرة الى الاصلاح؟

كل من تعلم في مدارسنا يكون إما مدرسا في مدرسة أو معلما في مكتب و

اماماً وخطيباً في مسجد أو عالماً ذا نفوذ عظيم في الأمة أورئيساً لبيت من البيوت ؟

ولا أرى أن وجوب اتصاف هؤلاء بالفضائل الجمة وتخلقهم بالاخلاق الفاضلة محتاج في اثباته الى دليل ؛

وإذا لم يكن المعلم والمدرس والامام والخطيب مثالاً في الاخلاق الفاضلة والآداب فلا يرجى منهم خير للأمة قطعاً . وليست وظائف من يكون زوجاً لامرأة أقل من وظائف من يكون معلماً في مكتب . لأن رئيس العائلة معلم في عائلته

كيف ندعي عدم افتقار مدارسنا الى الاصلاح ولا يدرس فيها «علم التربية» وعلم الاخلاق وعلم السياسة والاجتماع . مع أن هذه العلوم لابد منها لكل من يرشح للتدريس ، أو التعليم ، والخطابة ، أو الكتابة ؛

أم كيف نحسب المدارس التي لاتسم طلبتها فضيلة من الفضائل الانسانية ولا تدري ما هي الفلسفة الدينية معمورة غير مفتقرة الى الاصلاح ؟ او كيف ترجى الخدمة للمسلمين من طلبة هذه المدارس ؟

كل ما يدرس في مدارسنا عبارة عن متن وحواش وشروح وبضعة كتب من علم الكلام ألفت بعد ابتلاء المسلمين بالخلاف والجدل . أيكفينا هذه الدروس في هذا الزمان ؟

اذا قال لنا الذين يصدقون أقوال الكهان ويحكمون بما في كتب الطلاسم والجفر ويحرمون ركوب السكة الحديدية ، ويمتنعون من السفر تطيراً بحيوان مخصوص : ان مدارسنا أفاضت العلوم منذ قرون ولا تبرح تفيض وستفيض بعد الآن . والقارئون منا أكثر من قارئي الروس . لانهم عندنا خمسة وعشرون في المئة وعند الروس لا يزيدون عن عشرين في المئة على ان مدارسهم منتظمة ودروسها على نسق جديد والحكومة تؤيدها بمبالغ طائلة فالذي يضطرنا الى اصلاح مدارسنا ؟ قلنا لهم :

كان الذين يقرءون في عهد آبائنا قليلين جداً في المدن فما بالك بالقرى وما كان المقصد من الكتابة يومئذ الا كتابة الكتب (الخطابات) وقراءتها أو كتابة أسماء المواليد في سجل النفوس اذا كان القارئ اماماً في مسجد . ولا شك ان هذه الحاجة حاجة قليلة . وكانت مدارسنا في ذلك العهد تقضي هذه الحاجة . مضت الايام وتغيرت

الزمان وكثرت الحاجات ونجمت بين الامم «المنافسة في الحياة» أو «تنازع البقاء» وكانت الغاية من التعلم في المدارس قبل اليوم بنصف قرن الالمام بشيء من الدين وتعلم الكتابة . اما اليوم فقد صارت مدارس الامم الحية دور حياة تتخرج فيها هداة الامة وقادتها . وهؤلاء القادة يقودون أقوامهم الى ما فيه صلاحهم . ويسوقونهم الى مستقبل عظيم:

اذا بقي هداتنا حيارى اذ تقود هداة الامم الاخرى اقوامهم الى مصالحهم فقد خسرنا خسرانا مبينا :

فلتكن مدارسنا بحيث تربي لنا هداة يقودون الامة ويكونون لها خير قدوة . وان كان هذا الامر مما كان يعد قبل اليوم بثلاث سنين خيالا صرفا فقد صارت الآن حقيقة جلية كالشمس في وسط السماء .

هل كان يخطر ببالنا ان مسلمي الروس يضمون نظاما في حاجاتهم الدينية والدنيوية ويرفعونه الى الحكومة وانهم يجتمعون في مجالس الاحرار ويأمرون في شؤونهم المختلفة كما رأينا اليوم باعيننا فلا واذا رأينا بعد هذا وكلاء المسلمين يجلسون متكاتفين مع وكلاء الامم الاخرى في مجالس عالية ، وبالجملة انا نضطر بعد اليوم الى ان نعيش مع أهل وطننا المتقدمين في العلوم مشتركين في المصالح ، واذا لم نستطع ان نمشي معهم داسونا باقدامهم وبقينا اذلاء صاغرين .

ليست الغاية اليوم من التعلم في المدارس هي تعلم الكتابة فقط بل الغاية كما قلنا سابقا هو ان يتخرج فيها رجال يكونون أئمة للامة .

المتعلمون من الروس أكثرهم يعملون أعمالا نحار فيها عقولنا وأما المتعلمون منا فلا يقدر أحدهم على ان يتكلم بالعربية الفصحى بعد ان يكون أضاع جل عمره في تعلم لسان العرب الذي يحتاج اليه كل عالم اسلامي ديني . أيها الاخوان ! نحن في احتياج شديد الى مدارس منظمة تربي لنا رجالا تحفظ امتنا من الزلازل والزعازع والامواج والزوابع ، ومن أنكر هذا فقد أنكر ما أثبته البرهان والعيان .

(رضاء الدين بن فخر الدين)

(المنار) ان لنا رجاء كبيرا بمسلمي روسيا لا يزلزله ما نسمعه عن جمود الكثيرين

من أساتذتهم وشيوخهم ونفورهم من الاصلاح الذي قضت به ضرورات الزمان فان طلاب الاصلاح كثيرون وهم الغالبون حتما ولو بعد حين . ولعلنا نعود الى الموضوع ونذكر مايصل الينا عن موتمر التلاميذ الذي عقدوه في قزان وبعض ما نراه واجبا في اصلاح تلك المدارس

آثار علمية أدبية

التقريظ

«الحقيقة الباهرة في أسرار الشريعة الطاهرة»

كتاب وجيز للشيخ أبي الهدى أفندي الصيادي الشهير بين فيه شعب الايمان الواردة في الحديث بحسب فهمه وهذا الكتاب أحسن ما اطلعنا عليه من كتبه فقد تصفحنا منه أوراقا متفرقة فلم نر إلا ما معتدلا يقنع العامة وقلما ينكر الخاصة منه شيئا ضارا يعد منفردا به إلا ما بناه رواية كثير من الناس للجن قد تبع فيه كثيرا من المؤلفين وهو مما ينكره الخاصة ويعدون اشاعته ضارة وقد سبق المنار دليل ذلك .
واما ماينكرونه أو ينتقدونه عليه مما انفرد به فلم أر فيه مايضر القارئ . مثاله قوله

«والعلم بالله على ثلاثة أقسام الاوامر الشرعية والنواهي الشرعية والمباحات الدنيوية ومدارك الحواس الضرورية والضرورة العقلية — فعلم الامر هو علم الفرائض والسنن والفضائل وعلم النهي هو علم الحلال والكراهة والتنزيه وعلم المباحات هو العلم بالدنيا وأهلها وكيفية آداب المخالطة واكتساب المعيشة وصيانة المجد وحفظ حقوق المقادير وأبهة الهيأة المجتمعة وهذه الاقسام الثلاثة تتعلم من الشرع وطريقها السمع . وأما مدارك الحواس والعلوم الضرورية فقد اشترك فيها الحيوان العاقل فلا تحتاج الى اكتساب . وبعد هـذا فالهدي هو العلم لايستغني القلب عن العلم طرفة عين والعقل أيضا محتاج الى العلم النبوي لايستغني عنه بنفسه آنا أبدا وكل علم مدّ شراعه في الاكوان انفتق رتقه بهمم الانبياء وباشرته العقول فسلكت فيه فجاجا»

فالعامي يفهم من هذا الكلام انه يطالب بالعلم الديني والدنيوي والخاصي لايقول

ان فيه شيئا ضاراً بعقيدة القارئ، أو آدابه وانما ينكر هذا التقسيم وهذا البيان للأقسام – ينكر على المؤلف أنه قال إن الاقسام ثلاثة وسرد اكثر من ثلاثة معطوفا بعضها على بعض، ينكر عليه أنه جعل كيفية الكسب وصيانة الجد والعلم بجميع المباحات من العلم بالله ولم يذكر أن من العلم بالله العلم بصفاته وأسمائه وسننه وحكمه في خلقه وانما العلم بالله في الحقيقة هو العلم بهذه الأشياء ولا يصح أن يسمى غير ذلك علما بالله إلا بتأويل . فان قيل انه طوى هذا في العلم بالاوامر أي بالفرائض والسنن – وهو مالا يتبادر من لفظها – يقول المنكر ان سلمنا ان هذا مما يفهم منها فاننا ننكر على المؤلف سكوته عن أهم أركان العلم بالله ونطقه بما لا يعد من أركانه أو لا يعد منه الا بتكلف من التأويل

– وينكر عليه قوله ان المباحات تعلم من الشرع وطريقها السمع بأنه لا حاجة الى ان تعلم المباحات تعلماً ولا تتوقف معرفتها على السمع فانها هي الاصل وانما يتعلم من الشرع القسمان الاولان – الاوامر والنواهي – فيعلم ان ماسواها مباح على الاصل فما سكت عنه الشرع لم يأمر به ولم ينه عنه فهو مباح وفي الحديث الصحيح عند البخاري ومسلم «أنتم أعلم بأمور دنياكم» – وينكر عليه قوله في مدارك الحواس والعلوم الضرورية وسكوته عن العلوم النظرية ولا حاجة لشرح ذلك ولا لبيان سائر ما ينتقد في تلك الجملة . ومما ينكر عليه من هذا القبيل ترتيب الشعب وخلط مسائل الايمان منها ومسائل الاسلام ومسائل الاحسان بعضها ببعض . ان اريد الا بيان انما ينكر على هذا الكتاب لا يكاد يتجاوز حسن البيان وتحرير المسائل الى كون ما كتبه ضارا بعقائد القارئين أو آدابهم كما يوجد في كثير من الكتب فالكتاب اذاً نافع

وقد أعجبني ما ذكره في شعبة الزكاة وهو «واذا تدبر اللبيب يرى أن الوجود كله يتعبد لله بالزكاة عملا بشريعة الاسلام – هذه الارض التي هي أقرب الاشياء الينا تعطي جميع زكاتها من منافعها ونباتها ولا تبخل على من على ظهرها بشيء مما عندها في فصول العام وكذلك النبات والاشجار والحيوان والبحر والسماوات والافلاك والشمس والقمر والنجوم الكل لا يدخر شيئا من منافع جوهر يته

وفوائد مادته متعاون بعضه مع البعض في طاعة الله فمانع الزكاة مخالف لجميع الموجودات بل وللأرضين والسموات ولذلك وجب شرعا قتاله وقهره واجباره على ايتاء الزكاة فتدبر سر هذا الحكم وحكمته يظهر لك شيء من جليل معاني الشريعة ففيها البلاغ» اه وهو كلام ظاهره شعري وباطنه فيه حقيقة دقيقة وياليت المؤلف توسل الى السلطان بإلزام المسلمين باداء الزكاة لعله يجاب كما يجاب الى كثير من الامور الدنيوية التي يطلبها منه

وقد طبع الكتاب على ورق جيد وهو يطلب من مكتبة أمين أفندي هنديه

(خلاصة السيرة المحمدية)

يجب على كل مسلم ان يعرف رسوله الذي هداه الله تعالى على يديه معرفة تغذي ايمانه به وتنمي حبه في قلبه وترغبه في التأسي به فقد قال تعالى في كتابه (٣٣: ٢١ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) والاسوة تتوقف على معرفة سيرته من تأسى بهفي أخلاقه وشمائله وأعماله وسائر شؤونه. وقد كان يصعب على كل مسلم ان يقف على السيرة النبوية اذ لم يكن ألف فيها الا الكتب المطولة التي تعسر الاستفادة منها على غير العلماء. ومن محاسن هذا العصر أن ألفت فيه المختصرات السهلة في كثير من العلوم ومنها (خلاصة السيرة النبوية) للشيخ عطية محمد البشاري مدرس اللغة العربية في مدرسة العقادين الاميرية. كتاب لاتبلغ صفحاته عقد المئة ولكنه جامع لامهات مسائل السيرة النبوية بالاختصار، مع الاشارة الى شيء من وجوه الاعتبار ، وملخص سيرة الخلفاء الراشدين. فأنصح لجميع نظار المدارس الاهلية ان يجعلوه من أول دروس الدين ثم ينتقلون منه الى كتاب (نور اليقين في سيرة سيد المرسلين) وأتمنى لو يعم نشر هذين الكتابين ويقرآن للعامة في المدن والقرى. ولو كنا عارفين بطرق النشر لادركنا بعض ماتمنى من مثل ذلك. هذا مانرى التنويه به نافعا بالاجمال ولاحاجة الى الكلام عن جزئياته بالتفصيل

(اعلام البعيد والقريب، بعجز من ظن انه رد على السؤال العجيب)

الشيخ أحمد المليجي الكتبي مناظرات مع دعاة النصرانية بمصر وردود

عليهم منظومة ومنثورة ومنها (السؤال العجيب) وهو سؤال منظوم وجهه اليهم فنظم بعضهم رداً عليه فعاد الشيخ أحمد الى ردّ الرد في كتاب منظوم منثور بلغت صفحاته ٦٨ والظاهر ان هذه الردود تتسلسل فلا تنقطع واذا كان الجدل مكروها وضاراً في الاجتماع فما يصح للمسلمين أن يفخروا بأنهم لا يعتدون ، واذا اعتدي عليهم ينتصرون فلا يُغلبون ،

﴿ كتاب الموسيقي الشرقي ﴾

يكثر المصنفون في هذه البلاد سنة بعد سنة ولكن يقلّ فيهم من يأتي بشيء مبتكر ، يعرّف به المنكر ، أو يحرّر ماليس بمحرّر ، أو يحيي به فنّا مات ، أو يقيم به رسما درس ، وقد أهدي الينا في هذه الايام كتاب (الموسيقي الشرقي) واذا نحن بمؤلفه (كامل أفندي الخلعي) يحاول فيه احياء هذا الفن الجليل — فن الموسيقي — باللغة العربية بعد أن ذهبت به السنون ، وتطاولت عليه القرون ، ولم يقدم على هذا الا بعد أن أخذ له أهبته وأعد له عدته ، بممارسة الفن علما وعملا على أيدي اساتذة العصر فيه كالمرحوم الشيخ أحمد أبي خليل القباني الدمشقي استاذه الأول والشيخ عثمان الموصلي وغيرهما ثم بمراجعة أدريس بك راغب الشهير ، فجاء سفرا حافل الري ، كامل الروي ، يدخل في مئتي صفحة كبيرة أو يزيد ذا طبع جميل ، على ورق صقيل ، وزين بصور أشهر الموسيقيين المعاصرين مع تراجمهم والمختار من ألحانهم فكان بذلك ذا شجون وفنون ، جديرا بأن يكثر فيه الراغبون ،

بدأ المؤلف مقدمة كتابه بتعريف الموسيقي والنغم واللحن والصوت والاصول التي هي موازين الألحان ثم تكلم على الغناء وآلات الطرب والسماع وجاء بأقوال الحكماء والفقهاء فيه ونقل كلام ابن خلدون في الموضوع ثم عقد للصوت فصلا خاصا فاطال الكلام في مباحثه الطبيعية والفنية ففصلا للنغمات ففصلا لما يعرف عندهم بالتصوير وعند الافرنج بقلب القرار وفيهما من الرسوم والجداول ، ما يجلي ما اشتملا عليه من المسائل ، وجاء بعدهما بفصول في آلات الطرب — العود والقانون والكمنجة الافرنجية والعربية والناي والصونومتر والمترونوم — وقد

وضع في الكتاب رسوم هذه الآلات وشرحها وبين طرق العزف بها ثم عقد فصلا مطولا للاوزان او الأصول بين فيه أقسام الواحدة والاوزان المصرية وهي سبعة عشر وأوضح كل ذلك بالاشارات الى غير ذلك من الفوائد وهذه الفصول كلها في مباحث الكتاب الفنية . ثم ذكر فصولا أكثر مباحثها أدبية كآداب المغني والسامع وغناء المشاشين وملاهيهم وكيفية تعليم الفن وصفة المغني واسماء ملح الغناء بمصر وتفضيل الغناء القديم على الحديث . وجاء بعد ذلك ببدائع الموشحات ثم تراجم اساتذة الفن وتلاحينهم المختارة . وقد وضع في آخره تلاحين له عربية على العلامات الافرنجية المعروفة بالنوتة وهو مالم يسبقه اليه أحد من أهل لغتنا فيما نعلم

أنفق كامل أفندي على تأليف هذا الكتاب وطبعه عدة سنين هي ربيع عمره وزهرة حياته فهو جدير بأن يكافأ بالثناء والشكر ومن الشكر الاقبال على الكتاب وترويجه وثمن النسخة منه عشرون قرشا وهي قليلة على حسن طبعه وورقه وصوره ورسومه فهي الجزاء المادي لذات الكتاب ويبقى لصاحبه حق الجزاء الأدبي لمن يعرف مكان هذا الفن من التربية والآداب

﴿ أبدع ما نظم في الاخلاق والحكم ﴾

جمع السيد يوسف أفندي بن عبد الغني سنو الحسيني البيروتي صاحب مكتبة البدائع بمصر قصائد ومقاطيع في الاخلاق والحكم من نظم الأوائل والاواخر ومزجها بمنظومات لهأ كثرها في الاقتباس وطبعها فكانت ديوانا جليلا وقد وضع في ذيل الصفحات تعريفا وجيزا بكل شاعر عند ذكره لاول مرة يذكر ما عرف من نسبه وتاريخ ولادته ووفاته . وهاك هذه القصيدة مما اختاره لاحد الجاهليين قال

﴿ ومن قصيدة لعدي بن زيد ﴾

وعاذلة هبت بليل تلومني　　فلما غلت في اللوم قلت لها اقصدي

أعاذل ان اللوم في غير كنهه　　عليّ ثنى من غيرك المتردد

أعاذل ان الجهل من لذة الفتى　　وان المنايا للرجال بمرصد

أعاذل ما أدنى الرشاد من الفتى … وأبعده منه اذا لم يسدد

أعاذل من تكتب له النار يلقها … كفاحا ومن يكتب له الفوز يسعد

أعاذل قد لاقيت ما يزع الفتى … وطابقت في الحجلين مشي المقيد

أعاذل ما يدريك أن منيتي … الى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد

ذريني فاني انما لي ما مضى … امامي من مالي اذا خف عودي

وحممت لبقائي الي منيتي … وغودرت ان وسدت أو لم أوسد

وللوارث الباقي من المال فاتركي … عتابي فاني مصلح غير مفسد

أعاذل من لا يصلح النفس خاليا … عن الحي لا يرشد لقول المفند

كفى زاجراً للمرء أيام دهره … تروح له بالواعظات وتغتدي

بليت وأبليت الرجال وأصبحت … سنون طوال قد أتت قبل مولدي

فلا أنا بدع من حوادث تعتري … رجالا عرت من بعد بؤسى وأسعد

فنفسك فاحفظها عن الغي والردى … متى تغوها يغو الذي بك يقتدي

وان كانت النعماء عندك لامرئ … فمثلا بها فاجز المطالب وازدد

اذا ما امرؤ لم يرج منك هوادة … فلا ترجها منه ولا دفع مشهد

وعد سواه القول واعلم بأنه … متى لا يبن في اليوم يصرمك في الغد

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه … فكل قرين بالمقارن يقتدي

اذا أنت فاكهت الرجال بمجلس … فقل مثل ما قالوا ولا تتزيد

اذا أنت طالبت الرجال نوالهم … فعف ولا تأتي بجهد فتنكد

ستدرك من ذي الفحش حقك كله … بحلمك في رفق ولما تشدد

وسائس أمر لم يسسه أب له … وراثم أسباب الذي لم يعود

وراجي أمور جمة لن ينالها … ستشعبه عنها شعوب لملحد

ووارث مجد لم ينله وماجد … أصاب بمجد طارف غير متلد

فلا تقصرن عن سعي ما قد ورثته … وما اسطعت من خير لنفسك فازدد

وبالعدل فانطق ان نطقت ولا تلم … وذا الذم فاذممه وذا الحمد فاحمد

ولا تلح الا من ألام ولا تلم … وبالبذل من شكوى صديقك فافتد

عسى سائل ذو حاجة ان منعته ... من اليوم سؤلاً ان ييسّر في غد
وللخلق اذلال لمن كان باخلا ... ضنينا ومن يبخل يذلّ ويُزهد
وأبدت لي الايام والدهر أنه ... ولو حب من لا يصلح المال يفسد
ولاقيت لذات الغنى وأصابني ... قوارع من يصبر عليها يخلد
اذا ما تكرهت الخليقة لامرىء ... فلا تغشها واخلد سواها بمخلد
ومن لم يكن ذا ناصر عند حقه ... يغلب عليه ذو النصير ويضهد
وفي كثرة الايدي عن الظلم زاجر ... اذا حضرت أيدي الرجال بمشهد
وللأمر ذو الميسور خير مغبة ... من الأمر ذي المعسورة المتردد
سأكسب مجدا أو تقوم نوائح ... عليّ بليل نادباتي وعوّدي
ينحن على ميت وأعلنّ رنة ... تؤرق عيني كل باك ومسعد

وقد اخترنا المثال من شعر العرب لنذكر الناشي ونعرّف الجاهل بما أوتوه في جاهليتهم من الحكمة التي أعدتهم لفهم الاسلام وقبوله والسيادة على العالم به لعلهم يتذكرون فيوازنون بين ماضينا وحاضرنا بين جاهليتنا قبيل الاسلام و بين حالنا الآن في علو الفكر وعزة النفس ومكارم الاخلاق ليروا أي الفريقين أرجح — ليروا هل يوجد في علمائهم من ينطق بالحكمة التي كان ينطق بها الجاهلي ؟ هل يوجد في أغنيائهم من يبذل ماله لوقاية ملته وأمته من الخطر كما كان يبذل الجاهلي كل ما يملك ولو لمحتاج واحد؟ هل يوجد في دهمائهم من يبذل روحه لوقاية نفسه وقومه من الذل وحمايتهم من الظلم · · · · والكتاب يباع بأربعة قروش بمكتبة الدائم بشارع محمد علي

﴿ حديقة الآداب ﴾

جمع ابراهيم دسوقي أفندي أباظه نجل ابراهيم بك أباظه وهو الآن تلميذ في المدرسة الخديوية ما استحسنه من كراسات الانشاء التي كتبها في المدرسة باقتراح المعلمين وما نظمه من الشعر وما كتبه من الرسائل وما خطب به في بعض الجمعيات الادبية التي يخطب فيها مثله وطبع ذلك كله في كتاب سماه حديقة الآداب. وقد أحسن في هذا العمل لان ابراز صورته العقلية والنفسية للناس قبل أن يبلغ أشده ويتم تعليمه جدير بأن يبعث همته في كل سنة الى الارتقاء عما عرف الناس

منه ارتقاء يعرفه الناس ومن كانت حديقة الادب له بداية يرجى ان يكون نيل الارب له خير نهاية

(اظهار المكنون . من الرسالة الجدية لابن زيدون)

رسالتا ابن زيدون أشهر في عالم الادب من نار على علم ومن طلاب العلم من يحفظ الرسالة الجدية عن ظهر قلب لما فيها من الحكم والامثال، والمحاسن والنكات والاشارات التاريخية، والمختارات الشعرية، فهي خلاصة أدب رائع، واطلاع واسع، لا يفهمها على سلاسة عبارتها الا من ضرب في تلك المسائل بسهم، وكان له مما تومىء اليه نصيب من العلم، ومن ثم كان الطلاب وكثير ممن يوصفون بالتحصيل والاساتذة في قصور عن فهمها بغير معونة الشرح أو تكرار المراجعة لذلك اقترح بعض محبي الادب على الشيخ مصطفى العناني أحد مساعدي التفتيش بنظارة المعارف ان يشرحها شرحا وجيزا يكشف عن المفردات، ويبين مقاصد الكاتب من العبارات، ويذكر مضارب الامثال، وقائلي الشعر ليكون لها شرح على هذا المنوال، فأجاب الى ذلك وقد وضع الشرح في أدنى الصفحة والاصل في أعلاها وطبعها على ذلك فكانت نحو أربعين صفحة وجعل ثمنها قرشا ونصف قرش

﴿نتيجة الاملاء﴾

رسالة وجيزة في قواعد الاملاء للشيخ مصطفى العناني وهي على ايجازها مفيدة جدا في هذا الفن حتى تكاد تكون محصية للضروري من قواعده وقد طبعت في القطع الصغير وثمن النسخة منها نصف قرش

﴿حبيب الامة﴾ جريدة جديدة أنشأها في تونس أحد كتابها البارعين (عبد الرزاق القطاس) وقد عاهد الامة على الحرية والاستقلال في بيان الحقائق واسداء النصيحة من غير محاباة للحكومة ولا مراعاة أهواء العامة أو ما هذا معناه فيما نتذكر ـ وقد اختزل العدد الاول دوننا ـ ولعمري إن هذه الطريقة هي الطريقة المثلى وفقنا الله وإياه الى الاستقامة عليها فانه لا خير في سواها

باب الأخبار والآراء

﴿ مؤتمر الاديان في اليابان ﴾

كتبنا في الجزء الثامن عشر من السنة الماضية (الصادر في ١٦ رمضان سنة ١٣٢٣) مقالة في دعوة اليابان الى الاسلام وكتبنا بعدها نبذا أخرى في ذلك (راجع ص٧٠٥ و ٧٩٦ و٩٨٧ م٨ وص٧٥ م ٩) وقد أشرنا في الجزء الاول من هذه السنة الى ما كان لتلك الكتابة من التأثير في بلاد الاسلام شرقيها وغربيها حتى ان بعض أهل الغيرة وعد يبذل المال في هذه السبيل عند ما تظهر الدعوة الى ذلك في المنار وبعضهم قد أرسل الينا حوالة مالية للاعانة على ذلك ووعد بتأليف جمعية تجمع المال من الموسرين اذا نحن شرعنا في العمل . وقد أشرنا في بعض ما كتبنا الى ان مثل هذا العمل لا تأتي الا من جمعية تقوم به لأن ما يأتي من الافراد يكون ضعيفا غير ثابت ولا دائم . وكان خطر لنا من بضعة أشهر ان نسعى في تأليف جمعية للدعوة الى الاسلام تكون لها مدرسة خاصة لتعليم الدعاة ما يعدهم لاقامة هذه الفريضة المحتمة فاستشرنا بعض أهل الرأي والغيرة في ذلك بمذاكرة الحاضر ومكاتبة الغائب فأجمعت الآراء على استحسان المشروع ولكن ظهر لنا ان بعض الكبراء منهم لا يثق بقدرة الجمعية التي يراد تأليفها على جمع المال الذي يكفي للقيام بهذا العمل خلافا لنا في اعتقادنا أن هذا المشروع يقع أحسن الوقع من نفوس جميع طبقات المسلمين ويرجى تعضيده من جميع البلاد الاسلامية اذا كان القائمون به ممن يوثق بهم في استقامتهم وكفاءتهم . وانما كتبنا ما كتبنا في ذلك لاجل تحريك الهمم وتوجيه النفوس الى العمل

وفق الله بعض أهل الفضل للاجتماع والمشاورة في ذلك وأنفوا لجنة اجتمعت عدة مرات وبحثت في المشروع ثم لما أقبل الصيف بحره وتفرقه اختاروا أن يرجئوا الاجتماع والسعي الى ان ينتهي الصيف

وكان من اقتراح بعضهم ان تعجل الجمعية باعداد ثلاثة أو خمسة نفر يستعدون

بالمطالعة والدارسة للسفر الى اليابان فاستحسن اقتراحه ولكنهم لم يشرعوا في شيء بالفعل وماسكتوا عن ذلك الا وأنطق الناس كلهم به خبر المؤتمر الديني الذي قرب وقت انعقاده في عاصمة اليابان

سبق للدولة اليابانية عقد مؤتمر ديني منذ سنين وقد دعت أهل الملل في هذا العام لعقد مؤتمر آخر يحضره الراسخون من أهل كل ملة يظهرون فيه حقائق دينهم وحججهم على كونه حقا مفيدا للبشر والعمران ويقال ان أولي الامر في الامة اليابانية سيدخلون في الدين الذي يظهر لهم بعد البحث الطويل انه خير الاديان، وأعونها على ارتقاء الاجتماع والعمران،

ذكرت «الجرائد المحلية» هذا الخبر فشغل الناس به عن كل خبر حتى كان حديث المحاور والسامر في كل ناد ومجلس، بل تجد الناس يتحدثون به في مواضع أعمالهم — عمال الحكومة في دواوينهم والقضاة في محاكمهم والتجار في دكاكينهم والفعلة في مواضع الحرث والبناء وغيرها من الاعمال وكل مسلم مقيم في مصر يقول انه يجب ان يكون لمصر أعضاء في هذا المؤتمر وقلما يذكر أحد منهم اليأس من قيام الحكومة بذلك والرجاء في الامة الا ويفصح بارتياحه الى البذل في هذه السبيل بقدر ماتسمح له سعته ومنهم من يشترط في ذلك ان يكون من يختارون للارسال أهلا لبيان مايمتاز به دين الاسلام على جميع الاديان. ومن شروط ذلك معرفة حقائق الدين الاسلامي وحكمه أو فلسفته كما يقولون ومعرفة الاديان الشهيرة الاخرى كالبوذية والبرهمية واليهودية والنصرانية. ويرى العارفون بأحوال الزمان والمكان يكادون يجمعون على انه لا يوجد في شيوخ الازهر من هم أهل لذلك على انه قد يرشح نفسه لمثل هذا العمل من هو دون شيوخ الازهر علما ومعرفة ومن الناس من يرشح من يهوى يظهر للناس غيرته وغيرة من يحب

ما أجدر تلك اللجنة التي جمعها غير مرة هذا الرجاء، قبل ان تتنازعه الاهواء، بالبحث في هذا الامر فان رأته متيسرا قامت به وان رأته متعذرا أظهرت رأيها للناس فيه لعلهم يقتنعون،

أما الدولة العلية فقد أرسلت الى المؤتمر من قبلها ثلاثة نفر بأمر السلطان

و بلغنا ان بعض مسلمي الهند وروسيا قد ذهبوا من قبل أنفسهم وأول مسلم انتدب لذلك رجل انكليزي قريب عهد بالاسلام، وان في ذلك لعبرة لأولي الاحلام،

مسألة العقبة

رجونا ان تحسن الدولة العلية المخرج من مسألة العقبة اذا كانت لم تحسن المدخل فلم يقض لنا مارجونا وذلك أنها لم ترض بان تحل عقدة الخلاف بالمذاكرة بينها وبين الخديوي وحكومته فاضطرت انكلترا الى أن تضرب للدولة أجلا عشرة أيام تخرج فيها جنودها من نقطة الخلاف وتجيب الى تعيين لجنة تحدد الحدود على اوجه المطلوب وتنذرها الويل والثبور اذا هي لم تفعل فأجابت انكلترا الى ماطلبت في اليوم العاشر فكان هذا الفشل كسابقه في مكدونية وغير مكدونية اذ تنال أوربا منا كل ماتريد في تركيا ومراكش وكل مكان ونحن مصرون على ذنوبنا التي نؤخذ بها كما قال ربنا (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) لاملوكنا يتوبون عن استبدادهم بالامر ولا امتنا تتوب عن غرورها ومكابرتها واسترسالها في أهوائها وجهالتها، والعجب الذي لاينقضي أنه كثير الذين يوصفون بالفهم مايرون أنه يجب علينا إظهار القوة من الضعف ووضع الستور على عيوبنا وذنوبنا التي حل بنا البلاء باقترافها لكيلا يشمت بنا اعداؤنا ولذلك يوهمون الامة بان كل خذلان تصاب به هو عين الفوز والظفر وسنبين الحق في هذه المسألة في مقال خاص

﴿ الشيخ علي الجربي ﴾

رغب شيخ الجامع الازهر الى الامير أن يجعل الشيخ عليا الجربي مدرسا واعظا في المساجد المصريه ويعين له راتبا من الاوقاف الخيرية يستعين به على عمله فأجاب الامير الى ذلك وكتب من ديوانه الى مدير الاوقاف بعد رسم الخطاب ما يأتي

(بناء على التماس صاحب الفضيلة شيخ الجامع الازهر قد سمحت المكارم السنيه بترتيب سته جنيهات شهريا لحضرة الشيخ علي أبي النور الجربي محسوبه على الاوقاف الخيرية اعتبارا من ٢٦ مارس نظرا لقيامه بالوعظ و بث العلم وارشاد المسلمين الى حقائق الدين الاسلامي واقتضى تحريره لسعادتكم تبليغا للامر أفندم)

ميز الشيخ علي على سائر الوعاظ بجعله واعظا في جميع المساجد له ان يعلم ويعظ حيث وجد وانما يعين الواعظ عادة في مسجد واحد وذلك أن الشيخ عليا جوّال وأولئك قاعدون أو متقاعدون . وماميز عليهم في التعيين الا وهو ممتاز بالذات فانك ترى العالم الازهري من أصحاب الدرجات الرسمية إذ وعظ لايحضر مجلسه الا الآحاد وترى الجرجي — وهو ليس بصاحب درجة رسمية — يعظ فيحضر مجلسه العشرات والمئات . ترى غيره يعظ فى كتاب يقرأه ويعرب كلماته ويبين للعامة مافيها من نكات البلاغة فلايبلغ شيء من معاني الكلام قلوبهم وترى الجرجي يعظ بغير كتاب فيفهم الناس حتى يبلغ مواقع التأثير من قلوبهم ولم يذكر كلة واحدة من اصطلاحات فنون البلاغة . رأيت أحد علماء الازهر يقرأ درسا للعامة فى مسجد عينته فيه جمعية مكارم الاخلاق فاذا هو يفسر لهم حديث «العلماء سرج الدنيا ومصابيح الآخرة» فمكثت في المسجد ساعة لم يَعْدُ بكلامه فيها البحث في المصابيح هل هي عين السرج فيكون اختلاف التعبير للتفنن أم هي أخص منها ... وما وزن السراج والسرج والمصباح والمصابيح . فانظر ماذا يختارون لتلقين الناس وكيف يشرحونه لهم والجرجي لا يفعل مثل ذلك وانما يتكلم على الناس بما يعتقد أنه يفيدهم في عقائدهم وأخلاقهم وآدابهم وعباداتهم ومعاملاتهم وفقنا الله وإياه الى السداد والاخلاص آمين

﴿جمعية العروة الوثقى الخيرية الاسلامية﴾

ان تقرير هذه الجمعية عن السنة الدراسية الماضية ينبيء بنجاحها وثباتها وفيه أنها انفقت على التعليم في هذه السنة نحو ٥٥٣٦ جنيها منها ٤٣٤١ جنيها وكسور من الأجور التي تؤخذ من التلاميذ فنشكر لأعضائها الغيورين سعيهم زادهم الله توفيقا

(تصحيح) في ص ١٥٩ من الجزء الثاني « كأفحوص القطاة » وصوابه « كأدحية النعامة » وهو مبيضها في الرمل وسبب سبق الذهن الى الأفحوص ما ورد في الحديث من تشبيه المسجد الصغير به . وفي ص ٢١٧ من الجزء الثالث « فلا والذي يتقي السماء » والصواب وضع « ذو » مكان (الذي) كما هي الرواية وذو عند طيء بمعنى الذي